عقيدتي سر نجاتي

(أنواع التوحيد)

هبة حلمي الجابري

الفهرس

الفهرس 1
مُقَدّمَة 2
تعريف العقيدة وأهمية تعلمها 4
أنواع التوحيد 16
توحيد الربوبية 17
توحيد الألوهية 43
توحيد الأسماء والصفات 72
خاتمة 99

مُقَدّمَة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واقتفى، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

سنعيش بإذن الله من خلال هذه السطور مع علم هو أساس العلوم الشرعية، وهو الطريق لمعرفة الله، بل هو أصل كل صلاح في الحياة، وقد ظل النبي صلى الله عليه وسلم ١٣ عاما في مكة قبل الهجرة يبني هذا الأصل في قلوب المسلمين، وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم لوجدنا أن أغلبها جاءت لتثبيت هذا الأصل، ومع ذلك يغفل كثير من المسلمين عنه مع أن فيه نجاتهم وفلاحهم وصلاح حالهم.

هذا العلم نعرف من خلاله أصول ديننا وقواعده الثابتة، ونتعرف من خلاله على إجابة الأسئلة التي تدور في أذهاننا عن علامات الساعة وأحداثها وغيرها من الأمور التي لابد لكل مسلم أن يكون على علم بها، وهو علم ممتع نتعرف من خلاله على أسماء الله عز وجل وصفاته، فهل هناك أعظم وأمتع وأروع من علم نعرف فيه أسماء الله وصفاته ونعيش معها وننهل من معينها؟

إنه علم العقيدة، وهو علم في غاية الأهمية لكل مسلم؛ فالإسلام عقيدة وعملٌ، ولا يَصِح عملٌ بلا اعتقادٍ، ولا ينفع عمل بلا عقيدة صحيحة.

وقد جاءت أغلب آيات القرآن الكريم لتقرير عقيدة التوحيد، والدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتثبيت أصول الاعتقاد (الإيمان والإسلام)، والتحذير من عاقبة الشرك والضلال.

يقول الله تعالى في سورة الغاشية: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3)}، عملت عملا كثيرا وتعبت فيه واجتهدت ومع ذلك {تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (4)} لماذا؟ لأن عقيدتها لم تكن سليمة، وعملها لم يكن خالصا لله، وبالطريقة التي أمر الله بها.

كما نرى من أحبار اليهود، ورهبان النصارى، وعبدة البقر والأصنام، بل وحتى المبتدعة الذين يعبدون الله ولكن بغير ما شرع الله.

تخيل من يتعب ويجتهد ويسهر الليل ويحرم نفسه من الملذات وهو يظن أنه بذلك سيصل إلى الجنة، ثم يأتي يوم القيامة فيجد أعماله هباء لا يقبل منها شيء، كما شبهها القرآن برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

يقول الله تعالى في سورة الزمر: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(65) }، لماذا ضاع كل هذا وأُحبط العمل؟ لأنه لم يكون على التوحيد، لأنه كان على الشرك.

ولو كانت عقيدة المسلمين راسخة لما وجدنا الفتن من الإلحاد والشبهات وغيرها تتسرب إلى قلوب كثير منهم كما نرى الآن.

وإذا كان البعض يظن أن علم العقيدة علم جامد، ويصعب فهم مصطلحاته وأبوابه، فقد حرصت على أن تكون العبارات سهلة ممتعة، مع العناية بالناحية الإيمانية والتطبيق العملي.

أسأل الله أن ينفع به وأن يجعله خالصا لوجهه، هذا وما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطأ أو سهو أو زلل أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وأعوذ بالله أن أكون جسراً تعبرون عليه إلى الجنة، ويلقى به في جهنم، وأعوذ بالله أن أذكركم به وأنساه.

تعريف العقيدة وأهمية تعلمها

حتى نعرف معنى العقيدة نريد أولا أن نجيب على هذا السؤال:

لو قلت لك أن هذه شوكة 🥄 فهل ستقتنع بذلك؟

بالطبع لا .

إذا أنت مؤمن ومصدق وعلى يقين أنها ملعقة وليست شوكة، ومهما حاولت أن أقنعك بغير ذلك فلن تغير ما تؤمن به، حتى لو أجبرتك بأي وسيلة على قول أنها شوكة، ولو نطق لسانك بذلك فسيظل قلبك مؤمنا بأنها ملعقة.

وهذا بالضبط ما نسميه العقيدة، أي الإيمان بشيء معين.

لقد أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم معتذرا باكيا نادما، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: "كيف تجد قلبك؟" قال: مطمئنا بالإيمان. فقال: "إن عادوا فعد"، وفي ذلك أنزل الله: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان).

فالعقيدة: هي الأمور التي يجب أن يُصَدَّقَ بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك.

والعقيدة في الدين ما يقصد به الاعتقاد؛ كعقيدة وجود الله وبعث الرسل.

أي أنها شيء أعتقده بقلبي وأؤمن به وأجزم به، وليست نصوصا تحفظ، ولا أقوالا يُجادَل بها، وإنما هي إيمان وخشوع وإخبات ويقين وطمأنينة ورضا.

عندما يتعلق الأمر بالإيمان والقلوب هل اعتدت على سماع كلمة توحيد أم عقيدة؟

علم العقيدة وعلم التوحيد مترادفان عند أهل السنة، أي أنهما بنفس المعنى، ولكن غالبا ما يُستخدم لفظ التوحيد فيما يختص به الرب عز وجل من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، وعندما نتكلم عن بقية أركان الإيمان والغيبيّات نطلق عليها عقيدة؛ فكلّ توحيدٍ عقيدة، وليس كلُّ عقيدةٍ توحيداً.

والمهم هو أن يكون توحيدك لله أو عقيدتك قوية راسخة، وأن تؤمن بمجموعة من الأمور لا يمكن أبدا أن يكون عندك أي شك فيها.

فما هي تلك الأمور التي على كل مسلم أن يؤمن بها؟

العقيدة الإسلامية هي:

الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين، وما أجمع عليه السلف الصالح، والتسليم التام لله تعالى في الأمر، والحكم، والطاعة، والاتباع لرسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم. إذا كل هذا الأمور تدخل في العقيدة.

ولكن من أين أخذنا لفظ العقيدة؟ ولماذا؟ وألا تذكرك كلمة العقيدة بكلمة أخرى؟

العقيدة مأخوذة من العقدة؛ لتدل على الثبات والإحكام فكما لا يستطيع أحد حل العقدة المُحكمة لا يمكن لأحد أن يجعلنا نشك في عقيدتنا وما نؤمن به.

فسميت عقيدة ؛ لأن الإنسان يعقد عليها قلبه.

ولنا في الصحابة والصالحين على مر العصور أسوة حسنة؛ فلم يفرطوا في عقيدتهم رغم الابتلاءات والإغراءات.

وحتى تكون عقيدتنا قوية وإيماننا قويا لابد أن نعرف عقيدة الإسلام بشكل صحيح.

ولكن لماذا علينا الاهتمام بعلم العقيدة؟ وما هي أهمية هذا العلم؟

لماذا ندرس العقيدة؟

عندما نتكلم عن أهمية دراسة علم العقيدة أو علم التوحيد ننظر للأهمية من جهتين:

1- من جهة الموضوع:

هل هناك علم أشرف من علم يتعلق بصفات الله وأفعاله سبحانه وتعالى؟ علم يتعلق بالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، ودعوة الرسل التي فيها فلاحنا ونجاتنا إن تمسكنا بها تجديها في علم العقيدة كما قال الله عز وجل: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[1] ، فما أرسل الله عز وجل الرسل وأنزل الكتب إلا لأجل إقامة التوحيد.

2- العباد أيضا يحتاجون لعلم التوحيد حاجة ضرورية ولا يستغنون عنه:

فالتوحيد هو نجاتك في الدنيا والآخرة وبه تصلح حياتك كلها.

هل تريد الرزق وكفاية شؤونك كلها؟

إذا عليك أداء حق الله عليك؛ لقوله تعالى في سورة الذاريات: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)}، ولن تصل لذلك دون علم التوحيد.

[1] [النحل: 36]

ألا تريد النجاة من النار؟

إذا قُل كلمة التوحيد صادقة مخلصة، ففي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ قدْ حَرَّمَ علَى النَّارِ مَن قالَ: لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بذلكَ وجْهَ اللَّهِ).

الحمد لله العقيدة سليمة فهل سيكون لها تأثير على عمل الجوارح أم لا؟

هل من الممكن أن تكون عقيدتي قوية متينة سليمة وأنا لا أصلي، أو لا أرتدي الحجاب الشرعي وأقصر في عباداتي؟

إذا كانت العقيدة سليمة وقوية راسخة سنجد أنفسنا نُدفع إلى العبادات دفعا، وإذا رسخت كلمة التوحيد في قلوبنا إيماناً وتصديقاً، انقادت جوارحنا لأمر الله تعالى عملاً وتطبيقاً:

- فكيف نؤمن بالحساب ووجود جنة ونار ثم لا نعمل لدخول الجنة ونحذر من الأعمال التي تدخلنا النار؟

- كيف نغتاب، أو نقبل رشوة، أو نغش ونسعى أن نوفر لأبنائنا من يغششهم في الامتحانات ونفرح ونفتخر بذلك، ونحن نعرف أن من يفعل ذلك معرض لعذاب الله؟

- هل يعقل أن نعرف وقوفنا يوم القيامة على قنطرة المظالم بعد المرور على الصراط ثم نظلم أو نضيع حقوق العباد؟ فما بالنا بحقوق الوالدين والزوج والزوجة والأولاد؟ كم من كلمة خرجت من أفواهنا جرحت وقتلت بغير سلاح وينتظر أصحابها القصاص.

- كيف أسمع عن الجنة وما فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم أتكاسل عن الصلاة، أو أترك العبادات، وأتهاون في ارتداء الحجاب الشرعي، وأتحايل عليه بأشكال ما أنزل الله بها من سلطان ولا تمت إلى حقيقة الستر بأي صلة؟

- كيف أعرف أسماء الله الحسنى وصفاته ومعانيها ثم لا أعمل بمقتضاها؟

أعرف أن الله الرزاق ثم أسأل العباد الرزق ولا أسأل الرزاق، أعرف أنه الصمد الذي يلجأ إليه الخلائق ولا أقصده في حوائجي، كيف أيأس ولي رب كريم حليم غفور جبار يجبر كسر المكسورين؟

وتلك العقيدة الراسخة التي جعلتنا نسعى للوصول للجنة والنجاة من النار هي التي علمتنا أن الدنيا دار ابتلاء لا راحة، فهل تشعر بالحزن وضيق الصدر وتريد الحل؟

إن الحل في تحقيق التوحيد فبه يكون انشراح للصدر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: "فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره، والسكون إليه والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جَنَّةُ الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين[2]" .

وقال أيضاً :" وعلى حسب كماله أي التوحيد وقوته وزيادته يكون انشراح صدر صاحبه"[3].

فالسعادة الحقيقة والصحة النفسية وراحة البال أساسها كلها من العقيدة الراسخة في القلب.

فهل يقلقك كثرة الفتن والشبهات والشهوات؟ هل تبحث عن النجاة منها وتخاف من الوقوع فيها؟

إن النجاة في العقيدة الصحيحة الثابتة الراسخة القوية.

[2] [الوابل الصيب من الكلم الطيب]
[3] [زاد الميعاد]

فكيف تجعلنا العقيدة السليمة ننجو من كل هذا؟

الفتن والشبهات والشهوات تحيط بنا بل قد زُينَت لنا والوقوع فيها سهل، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[4].

هذه الأمور التي خلقنا على حبها قد نحصل عليها من الحلال أو الحرام، والذي يعصمنا من الوقوع في هذه الشهوات المحرمة هو العقيدة.

فعندما نعتقد أن الله يسمع ويرى، يسمع السر وأخفى وكل ما نتلفظ به أو حتى ما أردنا أن نتلفظ به، يرانا حتى في خلواتنا حين نظن أننا غبنا عن أعين الناس؛ فكيف نجعله أهون الناظرين إلينا فنطلع إلى ما حرم من مواقع أو تتكلم المرأة مع رجال ليسوا من محارمها؟

وعندما نعلم أنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأنه قد أوكل بنا ملائكة حافظين، كراماً كاتبين، وأنه أعدَّ للمؤمنين جنة ونعيماً، وللكافرين ناراً وجحيماً؛ فإننا سنراقب أنفسنا ونمنعها من الوقوع في الحرام، ولن تكون شهوتنا قائداً لنا، فإن وقعنا في الحرام، فإننا نعلم أن الله تواب رحيم فنبادر إلى التوبة خوفاً من العذاب، وطمعاً في رحمة الله ولطفه ورغبة في الثواب.

إذا العقيدة حصن حصين لصاحبها، تحوطه وتحميه من الشهوات، ومن الغرق فيها.

وأما الشبهات التي ينشرها أصحاب البدع والضلال الذين يشككون في ثوابت الدين فتحتاج أيضا لعقيدة قوية راسخة للنجاة منها ومواجهتها.

كيف أتأثر بمن يشكك في حجية أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يضمن أنها لم تحرف، وأنا عندي يقين راسخ أن الله قد حفظ السنة كما حفظ القرآن؛ قال سبحانه وتعالى في سورة النجم: { وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (4)}.

[4] [آل عمران: 14]

قال ابن حزم الظاهري: "فأخبر تعالى أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم كله وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكرُ محفوظ بنص القرآن".

وقال الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا}[5].

فبالعقيدة الصحيحة يعصم المسلم نفسه من العبودية لغيره سبحانه، ومن الوقوع في الخرافات والسقوط في الظلمات، ومن الوقوع في البدع والمحدثات والشبهات.

كيف لا وأنا بعلم العقيدة أعرف حقيقة الإسلام والإيمان، وأعرف كيف أتعامل بشكل صحيح مع الغيبيات، بل وأعرف ربي وأؤمن بقضائه وقدره وقدرته وتصرفه في خلقه.

وهو علمٌ يُجدِّد التفاعل مع هذه الحياة، ويملؤها بالإيجابية.

فمن اعتقد بربوبية الله تعالى، قاده اعتقاده إلى التوحيد والعبادة، وانقلب خوفه أمنا، لا ييأس أبدا فهو يعرف أن الأمور كلها بيد الله، وهو قادر على تغيير حاله في طرفة عين، كل ما عليه الأخذ بالأسباب وسيرى من لطف الله به ما يقر عينه ويفرج كربه ويحقق أمله؛ فيقينه وحسن ظنه بالله لا يفارقه أبدا.

والبناء العقدي للأمة الإسلامية سبب في قوتها وثباتها، وسبب في النصر على الأعداء على مر السنين، فإذا ضعف إيمان الأمة انهزمت.

لهذا نحتاج إلى العناية بدراسة علم التوحيد، لننقي اعتقادنا ويكون خالصاً من أي شوائب تحبط أعمالنا.

ولو نظرنا إلى بعثة الأنبياء فإن أول ما يدعو إليه كل رسول هو عبادة الله عز وجل وحده، قال الله تعالى في شأن نوح عليه السلام: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ

[5] [الحشر:7]

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}[6]، كذلك كانت دعوة هود، ودعوة صالح، ودعوة شعيب، وقال الله عز وجل في شأن التوحيد: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[7]، فالتوحيد هو أول ما كلفنا الله عز وجل به فى دين الإسلام، وهو أول ما نُسأل عنه في قبرنا، وقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (من كان آخرُ كلامهِ لا إلهَ إلَّا اللهُ دخل الجنَّةَ)[8].

هذا في الحياة ولكن بعد خروج الروح هناك موقف آخر نحتاج فيه إلى سلامة التوحيد بشدة، فهل تعرف ما هو؟

إذا كانت عقيدتك سليمة وغادرت هذا العالم توفق بإذن الله تعالى للإجابة على أسئلة القبر.

في القبر لن تُسأل عن اسمك أو شهادتك أو أهلك و نسبك، وإنما تُسأل فقط في عقيدتك؛ من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ ولن يستطيع الإجابة على هذه الأسئلة إلا من عاش على التوحيد الخالص في الدنيا.

البعض يرى أن أمر سؤال القبر هين وبسيط،

فلو أن أحدا سألك الآن من ربك؟ ستقول: الله، من نبيك؟ ستقول: محمد صلى الله عليه وسلم، وما دينك؟ ستقول الإسلام.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة، أبدا؛ لأنه لا يوفق لها إلا من عاش على التوحيد، من قضى عمره وهو يبحث من هو ربه وما أسماؤه وما صفاته، ويبحث في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويبحث في الدين ما أركانه ومراتبه وكيف يحقق الإسلام والإيمان.

[6] [الأعراف: 59]
[7] [النحل: 36]
[8] رواه أبو داود

فالله عز وجل جعل الجزاء من جنس العمل، فإن اعتنيت بدينك توفق للإجابة على هذه الأسئلة.

طبعا هذا بخلاف من يعيش حياته كلها لا يدري ما الذي أتى به إلى هذه الدنيا، ولا يعرف ما أمره الله به، فهذا لا يوفق يقيناً للإجابة على هذه الأسئلة.

واعتناؤك بدينك هو علامة على حبك لله عز وجل، وعندما تختم كلامك بلا إله إلا الله فأنت من أهل الجنة بإذن الله، ولك الأمن يوم الفزع الأكبر قال تعالى في سورة الأنعام: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(82) }، أنت الوحيد الذي تخرج من قبرك يوم القيامة والملائكة تطمئنك، وربك راضٍ عنك، وليست هذه المنزلة إلا لأنك حققت التوحيد؛ قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}[9]، هذه بشرى عظيمة لمن حقق التوحيد، فكلنا أصحاب ذنوب ومعاصي، ولا يوجد بشر ليس بخطاء.

وهذا وعد من الله لمن كان توحيده سليما ومعتقده صافيا بمغفرة الذنوب، إذا تاب وعمل صالحا، ففساد المعتقد لا يُقبل، ولكن أمة مذنبة عاصية مع توحيد سليم نرجو من الله عز وجل أن تكون ممن يدخلون في مشيئة الله عز وجل بالمغفرة المذكورة في الآية.

لقد قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: (ما شاء الله وشئت، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أجعلتني لله ندا ؟ قل: ما شاء الله وحده)[10].

فهل هناك فرق بين (و) و (ثم)؟

نعم، فحرف في العقيدة يوقع في الشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله: "حاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فان آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان (يعني لو الإنسان مرض والطبيب لم يأتِ

[9] [النساء: 48]
[10] رواه أحمد

أقصى ما يحدث أن يموت الإنسان، البدن يموت) وأما إذا لم يحصل العبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدا"[11].

إذا علم العقيدة هو نجاتك في الدنيا والآخرة، فكم من الوقت أهملنا في دراسة هذا المعتقد!

لقد حان الوقت أن نبدأ في معرفة عقيدتنا، ولكن قبل ذلك نريد أن نعرف ما يميز عقيدة الإسلام عن غيرها من العقائد.

من أهم مميزات وسمات العقيدة الإسلامية:

1- سلامة المصدر:

من أين نستقي منازل القلوب من الخوف والرجاء والتوكل وضوابط ذلك؟ من أين نستقى ديننا كله؟

في رحلتنا للوصول إلى الله سبحانه وتعالى: إما أن نتبع طريق الوحي، وإما أن نتبع الهوى.

فهل نتبع ما تمليه علينا أهواؤنا ورغباتنا التي تختلف من شخص لشخص فيضيع الحق بيننا؟

أم أن الأعلم بما يصلح القلوب هو رب هذه القلوب؟ إذا العاقل الباحث عن النجاة سيختار طريق الوحي فقط.

وطريق الوحي يبين لنا أن مصادر العقيدة الإسلامية الصحيحة هي ثلاثة مصادر لا غير، منها نأخذ ديننا، ونعرف معتقدنا؛ فهذا الدين العظيم واضح المعالم لا غموض في منابعه، ولا خفاء في مصادره، وهذه المصادر هي:

1. كتاب الله تعالى، وهو الأصل الأول لأخذ العقيدة الصافية، لتخرجنا من الظلمات إلى النور، قال تعالى في سورة المائدة: {قد جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)}.

[11] مجموع الفتاوى لابن تيمية

2. السنة النبوية الثابتة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وكل ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحا ثابتا يجب أخذه والتسليم له؛ فالسنة وحي مثل القرآن جاءت من نفس المصدر، وأُمرنا بالأخذ بها والتمسك بما جاء منها، قال تعالى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى (4)}[12]، وقال صلى الله عليه وسلم: (قد تركتُكم على البيضاءِ ليلُها كنهارِها لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالكٌ)[13].

3. إجماع علماء الأمة؛ فهو مصدر من مصادر الأدلة الاعتقادية؛ لأنَّه يستند في حقيقته إلى الوحي المعصوم من القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وأغلب مسائل الاعتقاد هي محل إجماع بين الصحابة والسلف الصالح، وهذه الأمة لا تجتمع على ضلالة وباطل سواء في أمور العقيدة أو غيرها، قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ)[14].

إذا لا نأخذ عقيدتنا من البرامج التلفزيونية لغير العلماء المتخصصين الثقة ولا نأخذها من منشورات وسائل التواصل دون أن نكون على ثقة من مصدرها.

فكم يستغل بعض أعداء الدين وسائل الإعلام المختلفة لهدم قواعد الدين، ويدسون السم في العسل، فلنتبه ولننظر عمن نأخذ ديننا، فالعقيدة أمرها عظيم، والعاقبة إما إلى جنة أو نار.

وللأسف فإن دور هذا الإعلام يزداد تأثيرا سلبيا في الآونة الأخيرة، من خلال الحملة الشرسة على الثوابت الإسلامية، والطعن في أئمة الدين وعلماء الأمة ليبنوا بيننا وبين علمائنا الثقة حاجزا نفسيا، بل وصلت بالبعض إلى حدود التشكيك بالعقيدة الإسلامية والإيمان بالله تعالى، حيث اشتدت موجة استضافة من يروج للإلحاد في وسائل الإعلام مؤخرا، وإلى الله المشتكى.

فلنهتم بتعلم عقيدتنا الصحيحة من مصادرها الصحيحة ولنقاطع أمثال هذه البرامج.

[12] سورة النجم
[13] رواه ابن ماجه
[14] رواه الترمذي

2- اتصال سندها:

فنحن متأكدون تأكدا تاما أن العقيدة التي بين أيدينا هي العقيدة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، رواها العلماء بعضهم عن بعض حتى وصلوا للنبي صلى الله عليه وسلم.

3- موافقتها لفطرة الله عز وجل:

كما قال عز وجل: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}[15].

4- العقلانية:

فالعقيدة الصحيحة لا يمكن أن تناقض العقل الصريح؛ لأن الذي خلق العقل هو من أنزل هذا الشرع فلا تناقض بينهما.

لكن العقيدة الفاسدة بالطبع ستناقض العقل، والعقل الزائغ قطعا قد يناقض العقيدة الصحيحة. قد تأتي مسألة تحار فيها العقول لكن لا يمكن أن تناقضها.

5- الوضوح:

فهي خالية من التعقيدات والتناقضات والغموض والفلسفة؛ لأنها مستمدة من الوحي ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى وقد أوتي جوامع الكلم.

6- الوسطية:

فنجد من خالفها إما قد أفرط وغالا وإما قد فرط وقصر، أما عقيدة الإسلام فهي عقيدة وسط فالحمد لله على نعمة الإسلام.

كانت هذه مقدمة بسيطة عن أهمية علم العقيدة والآن نبدأ التعرف على أنواع التوحيد

[15] [الروم: 31]

أنواع التوحيد

ذكرنا أننا نستخدم لفظ "علم التوحيد" فيما يخص ربوبية الله وألوهيته وصفاته، وهذه العناصر الثلاثة هي أنواع التوحيد:

إذا أنواع التوحيد ثلاثة:

1- توحيد الربوبية

2- توحيد الألوهية

3- توحيد الأسماء والصفات

وهناك تقسيمات أخرى لأنواع التوحيد ولكننا سنختار هذا التقسيم ونبدأ بإذن الله في معرفة كل نوع والتعرف على ما يضاده، أي التعرف على ما يعكر صفو هذه الأنواع من التوحيد في قلوبنا.

توحيد الربوبية

عندما نقول توحيد الربوبية يتبادر إلى ذهننا اسم من أسماء الله الحسنى الذي نعرفه ونردده كثيرا فما هو ذلك الاسم الذي نشعر معه بالأمان وأن هناك من يعتني بنا ويدبر أمرنا؟

إنه اسم الرب

فما معنى الرب؟

الرب في اللغة يطلق على ثلاثة معانٍ:

1- يطلق على المالك

2- ويطلق على السيد

3- ويطلق على المربي

وكل هذه المعاني صحيحة في حق الله عز وجل.

ولكن لننتبه!

الرب لا يطلق بغير تقييد إلا على الله عز وجل.

يعني عندما نقول "الرب" فقط بدون أي إضافة فلا نقصد به إلا الله سبحانه وتعالى.

أما إذا أطلق على غيره فلا يطلق إلا مقيدا يعني نقول رب الدار: أي مالك الدار أو صاحب الدار وليس خالقها، رب المال: أي مالك المال وليس خالقه، وهكذا.

إذا ما معنى توحيد الربوبية في الشرع؟

التوحيد معناه الإفراد، وبالتالي فإن توحيد الربوبية معناه:

اعتقاد إفراد الله عز وجل بمعاني ربوبيته سبحانه وتعالى.

فما هي معاني الربوبية؟

- عندما نقول ربَّ الولد أي تكفل بغذائه ولباسه وأدبه.

- وعندما نقول ربَّ الشيء أي ملكه.

- وعندما يملك شيء فهو يتصرف فيه ويضع القوانين كيف يشاء ولا يملك المملوك إلا أن يطيع أمر مالكه.

إذا الربوبية لها ثلاث معانٍ.

فهيا نطلق لقلوبنا العنان لنستشعر معاني الربوبية، فكل معنى منها يحتاج إلى تأمل وتفكر، يحرك القلوب، ويُدمع العيون من روعته وحلاوته، ويدفع الجوارح للعمل بجد ومثابرة وحب وشوق.

المعنى الأول من معاني الربوبية:

اعتقاد انفراده سبحانه وتعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة والعطاء والمنع والنفع والضر.

قال الله عز وجل في سورة يونس: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32)}.

أمور مستقرة في الفِطَر والعقول أن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت، ولذلك حتى مشركوا مكة اعترفوا بذلك، ولكن هذا الإقرار لم ينفعهم لأنهم لم يعملوا بمقتضاه ولذلك قال لهم: (أفلا تتقون)؛ أفلا تتقون الشرك؟! أفلا تتقون عبادة غيره؟!

(فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ) أي لم تصرِفُون العبادة لغيره؟

وتذكر هذه الآية جيدا فسوف يتضح معناها أكثر عند حديثنا عن توحيد الألوهية.

وحتى نعيش مع هذه الآية وغيرها من الآيات التي تذكرنا بربوبية الله هيا نتأمل ونتفكر في مخلوقات الله ونرى إبداعه وعظمة خلقه سبحانه وتعالى، ولنرَ أولا التنوع في خلق الله:

- هناك 35 ألف نوع من العناكب، و10 آلاف نوع من النحل، و 370 ألف نوع من الخنافس، و750 نوعا مختلفا من الأشجار في كل 10 آلاف متر مربع من الغابات المطيرة في الأمازون.

{هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ}[16].

- يضع طائر الطنان بيضة أو بيضتين كل عام بينما تضع سمكة القد أكثر من 9 ملايين بيضة!

وفي الوقت الذي يبلغ فيه حجم بيضة النعامة حوالي 2 كيلو جرام يبلغ حجم بيضة الطائر الطنان حجم حبة البازلاء، وكلاهما من الطيور.

- ويزن الخفاش الطنان جرامين فقط، بينما يزن القلب فقط للحوت الأزرق 600 كيلو جرام، وكلاهما من الثدييات. فسبحان ربي الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا.

[16] [لقمان: 11]

- طحلب الكلاميدوناس يموت من الحر لو زادت درجة الحرارة عن 4 درجات مئوية، بينما شوهدت بعض أنواع البكتيريا التي تعيش في البراكين وهي تموت من البرودة بعد وضعها في ماء يغلي!

وحين ينصهر فلز الزئبق عند درجة حرارة الغرفة العشرينية، فإن فلز التنجستين يحتاج إلى 3422 درجة مئوية حتى ينصهر.

فسبحانك ربي ما أعظمك!

- للأخطبوط ثلاثة قلوب، وللبقرة أربع معدات.

- أنثى الفيل الهندي تحمل لمدة 648 يوما بينما أنثى قملة النبات تولد حاملا أصلا .

- تنام الحيتان والدلافين بنصف أمخاخها فقط كي لا تغرق، وينام حيوان الكسلان ٢٠ ساعة، وأما النمل فلا ينام أبدا.

فسبحان الرب الرحيم الذي يعرف ما يناسب كل مخلوق من مخلوقاته.

- ووسط كل ما هو غريب وبديع يظهر لنا طائر الكيوي ليعلمنا أننا لم نر شيئا بعد! فهو عصفور، ولكن جسمه مغطى بالشعر بدلا من الريش! وعشه تحت الأرض وليس فوق الشجر، وله حاسة شم قوية يندر مثلها وسط الطيور، ويضع بيضة ضخمة يصل طولها إلى ١٢سم برغم أنه في حجم الدجاج!

هذا التنوع الخلقي الكبير تحدث عنه الله جل جلاله فقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}[17].

بل وتحدث القرآن عن الإعجاز في الاختلافات فقال جل جلاله: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[18].

ثم يأتي بعد ذلك من يقول أن هذا الإبداع وهذه الدقة في الخلق إنما وجدت صدفة!

أفلا يعقلون؟

هذا الخالق الذي ليس لديه شكل واحد للخلق ولا طريقة واحدة للأحياء في معيشتهم ورزقهم، ويرينا الكثير من آياته في جميع خلقه من إنسان وحيوان ونبات وجماد بل الكون كله، ولكن الكثيرين منا غافلون عن تدبر آياته والتفكر فيها.

التفكر في خلق الله تلك العبادة المنسية التي أمرنا الله بها كافية بأن تحيي قلوبنا، وتقوي إيماننا وتدفعنا دفعا للرجوع إلى الصراط المستقيم.

ألم نسمع أمر الله سبحانه وتعالى لنا بالتفكُّر والتدبر ونحن نقرأ كتابه العزيز؟ ألم نسمع ثناءه على من يتفكر في خلق الله وهو يقول: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[19]؟

ألم نسمع كيف خاطب الله سبحانه الغافلين عن النظر والتدبر في كونه، فقال لهم: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[20]؟ وقال سبحانه وتعالى: {وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}[21]، فما حظك من هذه العبادة العظيمة في يومك؟

---

[17] [الشورى: ٢٩]
[18] [النور: 45]
[19] [آل عمران: 191]
[20] [الحج:46]
[21] [يوسف:105]

ولا يمكن أن نتجاهل للحظة عناية الله لخلقه فهو لم يخلقهم فقط بل واعتنى بهم أيضا، فهيا بنا نتأمل بعض أشكال هذه العناية.

الببغاء لديه منقار معقوف ومخالب ثلاثية، المخالب تمسك بحبة الجوز والمنقار المعقوف (الشبيه بعتلة فاتحة العلب المعدنية) يتمكن من كسر القشرة الصلبة ويحصل على الغذاء الدسم السمين بداخلها، الببغاء يفعل ذلك لأن وزنه ثقيل ولو أكل أوراق النباتات حتى يشبع فسيثقل هذا وزنه أكثر ومن ثم يعجز عن الطيران، فيلجأ لهذه الحيلة حتى يحصل على غذاء خفيف الوزن عظيم الفائدة.

فمن الذي خلقه على هذه الصورة وأعطاه هذه المقدرة ليعيش؟

زهرة (الهندباء) تتخذ شكل المظلة لتتغلب على قوانين الجاذبية وتطير لمئات الأمتار لتتكاثر.

فسبحان من رعاها.

زهرة (الأوركيديا) تتخذ شكل أنثى النحل، ليس هذا فقط بل تقلد هذه الزهور رائحة النحلة الأنثى حتى في بعض الشعر لتضيف بعض الوهم الحسي، وتتزاوج ذكور النحل مخدوعةً بسحر الزهور بكل نشاط بينما تقوم الزهور بطرح حبوب اللقاح والتي تحتوي على مادةٍ لاصقةٍ تلتصق بظهورها وتصب في أزهار أخرى من نفس الفصيلة عندما تنطلي الخدعة على ذكر النحل من جديد. فمن علمها ذلك؟

أما حشرة سرعوف الأوركيديا فهي حشرة أسيوية تتنكر على شكل زهرة الأوركيديا.

فقد منحها الله القدرة على التخفي للحفاظ على نفسها من أعدائها ولتتمكن من الحصول على طعامها بسهولة.

هذا خلق الله فسبحان من خلق فأبدع!

سبحان من دبر لكل مخلوق أمره!

كما أن الله هيأ لكل كائن حي الوسائل التي تمكنه من الحصول على طعامه، فقد أعطى لكل منها أيضا وسائل تحميها من المفترسات وهكذا يحصل التوزان الطبيعي في البيئة وتبقى الكائنات القوية لتنجب نسلا قويا وتُفترس الفرائس الضعيفة.

ولنضرب مثلا على إحدى وسائل الحماية.

الأرنب والغزال وغيرها من الفرائس اللذيذة التي تعيش في الغابات يملك كل منهم عينين متباعدتين على جانبي رأسه، كل واحدة من هاتين العينين تشاهد صورة مختلفة عن التي تشاهدها الأخرى، هذا لا يصنع لديها صورة مجسمة ثلاثية الأبعاد مثل التي تحتاجها الحيوانات الصيادة، حيث إنها لا تحتاج إلى ذلك لأنها تأكل النبات أصلا، والنبات لا يتحرك. بينما عيناها وبهذه الطريقة تصنع لها صورة بانورامية واسعة المجال، يمكنها أن ترى ما يزيد عن الـ 180 درجة من مجال الإبصار بهذه البانوراما بالمقارنة بـ 120 درجة تقريبا للحيوانات ذوات العيون المتجاورة.

وهذا هو بالضبط عين ما يحتاجه الأرنب أو الغزال كي يأخذ الحيطة وينجح في الفرار من هجمات الفهد الذي يشتهيه!

يا لها من عناية من الله سبحانه وتعالى بمخلوقاته .

والإنسان له نصيب الأسد من هذه العناية، لنأخذ مثالا على ذلك: المثانة؛ ففي أوقات الحاجة الشديدة لدخول الحمام تكون قدرتها على التحمل كبيرة جدا فقط إلى اللحظة التي تقترب فيها بالفعل من أحد دورات المياه، حينها تفقد المثانة كل قدرتها على التحمل.

وسبب ذلك أن الخلايا العصبية على قدر من الذكاء يجعلها لا تستثار كثيرا بالإشارات التي ترسلها لها المثانة حتى يكون هناك مجال لإفراغها بالفعل.

فهل تفكرنا في ذلك يوما؟

إنها مخلوقات الله الذي مكن لكل منها مقدارا كافيا من التكيف مع بيئتها! لتقدر كلها على النجاة، وتنجح كلها في البقاء، وأمثال هذه العناية هي بالطبع أدلة على وجود من يعتني بكل هذه الكائنات.

ننتقل للمحة أخرى من لمحات الرب الخالق الرازق، نتأمل كيف يرزق عباده ومخلوقاته على اختلاف أنواعهم وكثرة عددهم؛ فالرب سبحانه يرزق كل مخلوق، ويقسم الأرزاق بين خلقه جميعًا؛ من بشر وحيوانات وطيور وحشرات وغيرها، ويرزق المؤمن والكافر؛ فالكل يُرزق، ولا يملك أحد رزقًا لأحد.

تأمل نزول المطر من السماء، وما يملكه أحد، به تحيا الخلائق كلها، وبه تجري الأنهار وتمتلىء العيون والآبار، ويشرب الناس ويزرعون، وتشرب بهائمهم وتعيش، ويتغذى الإنسان على ذلك كله.

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يمنع ذلك كله أو شيئًا منه؛ لمنعه، بل لو أراد الله سبحانه وتعالى لجعل هذه الأمطار سببًا لهلاكهم، بالفيضانات والسيول وإغراقها للبلاد والعباد.

أصل الغذاء يعود إِلى النباتات والحشائش، وهي تحتاج إِلى نور الشمس، ولكن على عمق 700 متر فصاعداً لا وجود لنور الشمس أبداً، بل ليل أبدي مظلم يلقي ظلاله ويبسط أسداله هناك، فماذا تفعل الكائنات التي تعيش في الأعماق؟!

لا تقلق فلم ينسَها الرب الرزاق فنور الشمس يُغذّي النباتات المجهرية في سطح الماء وبين الأمواج، وحين تبلغ مرحلة النضج تهبط إِلى أعماق البحر كالفاكهة الناضجة، وتنضم الى الأرزاق الإلهية للأحياء في تلك الأعماق!

ومن جهة أُخرى فهناك طيور كثيرة تتغذى من أسماك البحر، منها طيور تطير في الليل وتهبط إلى البحر كالغواص الماهر وعن طريق موجات رادارية خاصّة تخرج من آنافها تعرف صيدها وتصطاده بمنقارها.

بل انظر لهذا الرزق العجيب!

فرزق بعض أنواع الطيور يكون مُدّخراً بين ثنايا أسنان التمساح فبعد أن يتغذى تحتاج أسنانه إِلى "منظف طبيعي" فيأتي إِلى الشاطئ ويفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطيور التي أُدّخر رزقها في فم هذا الحيوان الضخم - دون وحشة ولا اضطراب - وتبحث عن رزقها بين ثنايا أسنان هذا الحيوان الكبير، فتملأ بطونها من جهة، وتريح الحيوان الذي تزدحم بين أسنانه "هذه الفضلات" من جهة أُخرى، وحين تخرج الطيور وتطير في الفضاء يطبق هذا الحيوان البحري فمه بكل هدوء ويعود إِلى النهر.

وأنت أيتها الأم هل تشعرين في شهورك الأولى من الحمل بعدم الرغبة في الأكل؟ وتحملين هم إطعاك جنينك؟

لا تقلقي فربه الرزاق تكفل برزقه، فقد جعل له الحبل السري ليكون حلقة الوصل والربط بينه وبينك.

يقوم الحبل السري أثناء الحمل بإمداد الجنين بكل ما يحتاج إليه من المواد الغذائية والتي تصب في دم الجنين مباشرة، ويساعده كذلك على التخلص من كل الفضلات وإيصالها للمشيمة.

وتحيط مادة هلامية بالأوعية الدموية التي يتكون منها الحبل السري لحمايتها، وهذه

المادة بدورها يغلفها غشاء خاص رقيق.

وفي المراحل الأخيرة من الحمل تقوم المشيمة بإرسال أجسام مضادة إلى الحبل السري ليحملها من الأم إلى الجنين، وتساعد هذه الأجسام المضادة على حماية الطفل من الأمراض خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عمره. أرأيت كيف يصل إليه رزق الرزاق؟

طريقة إيصال الرزق من الله تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة ومحيرة حقّاً.

من الجنين الذي يعيش في بطن أُمّه، إلى الحشرات المختلفة التي تعيش في طيّات الأرض، وفي الأشجار وعلى قمم الجبال أو في أعماق البحر، وفي الأصداف، جميع هذه الموجودات يتكفل الله برزقها ولا تخفى على علمه، يقول الله تعالى: {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}[22].

فكيف بعد ذلك تقلق على رزقك وربك الرزاق يرزقك ولن ينساك؟!

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[23].

فهل تتوكل على الله مثل هذه الطيور؟ من يتوكل على الله حق توكله سيتعجب من رزق الله له من حيث لا يحتسب.

كل ما تحتاج إليه عقيدة راسخة قوية، وقلبا ممتلأ بالإيمان، وحسن ظن بربك، وتوكل على ربك الرزاق، وأن تكون على يقين بأن رزقك المكتوب لك سيأتيك رغم ضعفك، ورغم صعوبة الظروف من حولك.

فإذا كانت عقيدتي قوية: عندها لن أرتشي طلبا للرزق، لن أتعامل بالربا، لن أسرق ولن آخذ حق غيري، لن أختلس، ولن أصارع زميلي في العمل وأحاربه ظنا مني أنه ينافسني في رزقي.

مسكين من يفعل ذلك، فهو لم يعرف أن الرزق الحرام يذهب ببركة الرزق حتى ولو كان كثيرا.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

جمع الحلال على الحرام ليكثره، دخل الحرام على الحلال فبعثره.

---

[22] [هود : ٦]
[23] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

يُحكى أن رجلين قد ذهب بصرهما كانا يجلسان على طريق أم جعفر زبيدة العباسية لمعرفتهما بكرمها، فكان أحدهما يقول: اللهم ارزقني من فضلك، وكان الآخر يقول: اللهم ارزقني من فضل أم جعفر.

وكانت أم جعفر تعلم ذلك منهما وتسمع، فكانت ترسل لمن طلب فضل الله درهمين، ولمن طلب فضلها دجاجة مشوية في جوفها عشرة دنانير.

وكان صاحب الدجاجة يبيع دجاجته لصاحب الدرهمين، بدرهمين كل يوم، وهو لا يعلم ما في جوفها من دنانير.

وأقام على ذلك عشرة أيام متوالية، ثم أقبلت أم جعفر عليهما، وقالت لطالب فضلها: أما أغناك فضلنا ؟ قال: وما هو؟ قالت مائة دينار في عشرة أيام، قال: لا، بل دجاجة كنت أبيعها لصاحبي بدرهمين.

فقالت: هذا طلب من فضلنا فحرمه الله، وذاك طلب من فضل الله فأعطاه الله وأغناه.

وهكذا إذا أيقنا بمعنى توحيد الربوبية لن نعلق قلوبنا بأحد سوى بالله ولم نطلب إلا من الله.

وذلك مع الأخذ بالأسباب فنحن مأمورون بذلك وإنما المهم ألا تتعلق قلوبنا بالأسباب وإنما برب الأسباب الذي يقول للشيء كن فيكون ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهكذا كما استشعرنا معنى الله الخالق البارئ المصور الرزاق، نستشعر كل معاني الربوبية وأن الله هو المحيي المميت، النافع الضار.

فهو خالق الحياة ومعطيها لمن يشاء، ثم يسلبها منهم بالموت متى شاء، وهو الذي أحيا قلوب المؤمنين بنوره، وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ونزل الكتاب، لينذر من كان

حياً، ويحق القول على الكافرين، وهو الذي أنزل من السماء ماء، وجعل من الماء كل شيء حي، يقول الحق سبحانه: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[24].

تلك الحياة تذكرنا بمعنى الحياة الحقيقية وهي حياة القلوب، فالمؤمن حيّ القلب؛ إذا قرأ القرآن تدمع عيناه، وإذا قرأ القرآن يقشعرُّ جلده، يذكر الله، ويذكِّر بالله، ويدعو إلى الله، وله أهداف كبيرة سامية، يسعى بها إلى مرضات ربه، وهذه هي الحياة الحقيقية "حياة القلوب".

فليس من مات فاستراح بميِّتٍ وإنما الميِّتُ ميِّتُ الأحياء

والرب سبحانه هو الذي أمات الجبابرة رحمةً بعباده، بعد أن أمهلهم فلم يتوبوا فاستحقوا عقابه، وأمات الأرض إذ خلت من النبات، وكتب على خلقه الموت ثم يبعثهم ويجازيهم على أعمالهم فهو لم يخلقهم عبثا ولم يتركهم هملا.

فهو (المميت): ليعلم الناس أنَّ الله قادرٌ على التصرُّف بالإحياء وبالإماتة متى شاء ومتى أراد.

فالله قد قدَّر الموت على العباد والمخلوقات، وهو مما قهر الله به عباده، فعادوا بالموت إلى الأرض، وطواهم التراب الذي خلقهم منه بعد أن أخرهم إلى أجل مسمى فسبحان المحيي المميت.

قال تعالى في سورة إبراهيم: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى}[25].

أي لا شك في الله، أي في توحيده، أو أفي قدرة الله شك؟ سبحانه وتعالى.

أيضا هو النافع الضار.

هل تخاف من أحد؟ هل ترجو نفع أحد؟

[24] [الأنبياء: 30]
[25] {إبراهيم: 10]

لحظة من فضلك! انتبه لقلبك فكل البشر على ظهر الأرض ولو اجتمعوا جميعا لن يستطيعوا فعل إلا ما كتبه الله عليك.

فكيف بعد ذلك تلجأ لغير الرب ليحميك وينجيك مما تخاف وتحذر، أو ترجو عنده ما تتمنى وتنسى أن الأمر كله لله؟

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خلْفَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا فقال: (يا غلامُ إني أُعلِّمُك كلماتٍ: "احفَظِ اللهَ يَحفظْكَ احفَظِ اللهَ تَجدْهُ تُجاهَك، إذا سألْتَ فاسأَلِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلَمْ: أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعَتْ على أنْ يَنْفَعوكَ بشَيءٍ، لم يَنْفَعوكَ إلَّا بشَيءٍ قد كتبَهُ اللهُ لك، وإنِ اجْتمعوا على أنْ يَضُروكَ بشَيءٍ، لم يَضُروكَ إلَّا بشَيءٍ قد كتبَهُ اللهُ عليك، رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ)[26].

والله لو كانت لدينا عقيدة راسخة قوية وإيمانا حقيقيا بمعنى ربوبية الله لنا لما تعلقنا بغير ربنا، ولرتاحت نفوسنا وطرقت السعادة أبواب قلوبنا، بل وعاشت وتربعت فيها.

عشنا لمحات قليلة مع المعنى الأول من معاني الربوبية، ولو تأملنا حياتنا كلها لوجدنا كيف تحوطنا عناية الله ورعايته، كم نجانا من المهالك وكم فرج كربنا وكم يسر أمرنا وكم رزقنا من حيث لا نحتسب.

فهيا بنا أيضا نعيش قليلا مع المعنى الثاني من معاني الربوبية.

[26] رواه الترمذي وأحمد

المعنى الثاني من معاني الربوبية:

اعتقاد انفراده سبحانه وتعالى بالمِلك والمُلك التام.

والمِلك: ملك الذوات والأشياء.

اما المُلك: حق التصرف في هذه الأشياء

هل تحب أن يكون لك مِلك خاص بك؟ هل تحب أن تشتري قطعة أرض على سطح القمر؟

هيا أعد نقودك فالفكرة ليست مستحيلة.

في ١٩٩٧ تم إطلاق معاهدة الأمم المتحدة للفضاء الخارجي، كان من ضمن بنودها بند غريب ينص على أن القمر لا يعد ملكية خاصة بأي دولة من الدول!

لكن في بداية الثمانينات أرسل بائع سيارات مستعملة أمريكي يدعى (دينيس هوب) إلى منظمة الأمم المتحدة يخبرهم أن هناك ثغرة في القانون الخاص بهم والذي ينص على عدم جواز ملكية القمر لأي دولة من الدول لكنه لم يتحدث عن الأفراد، فبالتالي هو يدعي حق الملكية للقمر لنفسه ويطالبهم بإثبات خطئه القانوني!

ثم قام بطباعة حقوق الملكية لبيع فدان القمر الواحد بحوالي 19 دولار، تغير السعر بعد ذلك إلى 36.5 دولار بعد إضافة تكاليف الشحن والتوصيل لشهادة البيع وبعد إضافة (الضريبة القمرية) التي وضعها ولكن يوجد تخفيضات كبيرة بالطبع لمن يشتري أكثر، وكسب هوب 11 مليونا من الدولارات من بيع أراضي القمر، فمن الذي لا يريد أن يدفع عشرين دولارا فقط لشراء فدان من القمر ويأخذ شهادة أنيقة ويعلقها في غرفة مكتبه ليمزح حولها مع الأصدقاء؟

فهل يمتلك دينيس أو من اشترى منه قطعة من أرض القمر فعلا؟

لا يمكن لأحد منا أن يزعم أنه يملك شيئا ملكا تاما حقيقيا للأبد.

تلك السيارة التي نظن أننا نملكها ملكية تامة، ما الحديد الذي صنعت منه إلا جزء من تركة الحديد التي تركها الله سبحانه وتعالى للبشر يتوارثونها.

ودعونا نتأمل قليلا في حقيقة ما نملكه لنتأكد من ذلك؛ لو قلنا مثلا أن إنسانا يملك قطعة من الأرض الزراعية، فهو يقول أنها مكتوبة باسمي ومشهرة في الشهر العقاري وغير ذلك، إذا من مائة عام كانت ملكا لمن؟ وبعد ألف سنة ستكون لمن؟ وبعد عشر آلاف سنة ستكون لمن؟ بعد مائة ألف سنة ستكون لمن؟

يوما ما سيموت ويتركها لمن خلفه، وفي لحظة من اللحظات سيبيعها أحد ورثته، أو سينقطع نسله أو يضيع نسبه فتأخذها الدولة لتبيعها لمن يدفع أكثر، في النهاية فإن مليارات البشر ستتعاقب في آلاف السنين على نفس القطع من الأرض لتعيش عليها قليلا ثم تتركها.

فمِلكه عليها مِلك ناقص.

ولكن دعونا نفترض أنها فعلا مِلكه فهل يستطيع أن يقول لها أنبتي الزرع فتنبته؟!

بالطبع لا، فالذي يقدر على ذلك هو الله سبحانه وتعالى وحده الذي له المُلك الحقيقي، {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ}[27].

كل من هو دون الله عز وجل لا يملك قطميرة، تخيل القطمير؛ نواة البلح فيها غلاف رقيق يغلفها هذا اسمه القطمير والعرب كانت تضرب به المثل للتحقير، كانوا يقولون: أنت لا تملك قطميرة يعني لتحقير ما يملكه هذا الشخص. كل من هو دون الله عز وجل لا يملك هذا القطمير لنفسه حال حياته، فكيف بعد مماته؟

[27] [فاطر : ١٣]

عندما وُجِدنَا في هذا الكون رأينا أنه يوجد الكثير من الأشياء من حولنا، وأننا موجودون في ملكية خاصة بالفعل، ولكنها لا تعود إلى أي واحد منا حقيقة.

إذا الملك الحقيقي لله وحده.

ويخبرنا القرآن بمبدأ الملكية المتفردة لله سبحانه وتعالى حين يقول الله جل جلاله: {قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤} سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥}}[28].

والعجيب أننا بعد ذلك نجد من يبخل عن الإنفاق على الفقراء من مال الله الذي أعطاه إياه، ويأكل أموال اليتامى ويحرم أخواته البنات من الميراث، ويجمع المال من طريق حرام؛ ليحصل على مال يكون ملكه له ملكا ناقصا لوقت قليل وسيذهب لغيره يتنعم به - لفترة محدودة أيضا - ولا يتبقى له منه إلا الحساب عليه، ليُسئل من أين حصل عليه وفيما أنفقه، يحاسبه مالك المال الحقيقي على ما فعله بماله الذي أعطاه له لفترة محدودة ليختبره وينظر ماذا ما سيفعل بما أعطاه من مال.

ننتقل للمعنى الثالث من معاني الربوبية.

[28] [سورة المؤمنون].

المعنى الثالث من معاني الربوبية:

اعتقاد انفراده سبحانه وتعالى بالأمر والنهي والتشريع والسيادة

قال عز وجل: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[29].

وقال سبحانه: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}[30].

وقال تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ}[31] فلما سمع عدي ابن حاتم الطائي الآية قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لسنا نعبدهم، فقال: (ألم يحلوا لكم الحرام ويحرموا عليكم الحلال فاتبعتموهم؟) قال: بلى، قال: (فتلك عبادتهم)[32].

وقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}[33].

وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}[34].

إذا هنا التحليل والتحريم والنهي والتشريع حق خالص من حقوق ربوبية الله عز وجل.

فهل فعلا حققنا هذا النوع من معاني الربوبية في حق الله؟ أم أن البعض يقع فيه دون أن يشعر؟

---

[29] [الأعراف: ٥٤]
[30] [الشورى : ٢١]
[31] [التوبة: 31]
[32] رواه الطبري
[33] [النحل : ١١٦]
[34] [يونس : ٥٩]

لقد بين لنا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الحلال والحرام، فالحلال بين والحرام بين ولكن بعض الناس يخالف شرع الله ويعبد هواه، يقول الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}[35].

- تقول إن الحجاب الشرعي فريضة كالصلاة وتحذرها من خطر التبرج فإذا بها تقول لست مقتنعة! أو تقول أن الحجاب عادة وليس عبادة!

- تقول إن الخلوة حرام، ولا يجوز لك التبسط في الكلام والخلوة مع أخو الزوج وزوج الأخت وابن العم وابن الخال فإذا بها تقول أن هذا تفكير خبيث ولن يصدر من هؤلاء أبدا. مع العلم أن هذا ليس كلامك ولا كلامي بل هي أوامر ربانية وشريعة الله.

- تقول له إن الغش في المدرسة حرام، فيقول: ما هذه الأنانية ويزين له هواه الغش بدعوى أحب لأخيك ما تحب لنفسك.

- تقول له إن الرشوة حرام فيقول إنها إكرامية وليست رشوة.

- تقول إن السفر للأضرحة والتوسل عندها شرك، فيقول إنما هي بركة.

- كم مرة سمعت من يقول إن الاحتفال بشم النسيم وغيرها من أعياد غير المسلمين حرام وأحضر الفتوى، ثم نجد من يقول ليست حراما ويجادل ويبرر، بل قد يصل الأمر للاتهام بالتشدد وعدم فهم الدين الصحيح وأنك تحرم كل شيء، ويقول أنا غير مقتنع.

هو للأسف هكذا يحلل ما حرم الله؛ لأن هذه أمور لا خلاف فيها، أما أمور الخلاف الفقهي السائغ فلا تدخل في الأمر.

وليس معنا أننا ولدنا ووجدنا أمرا مخالفا للشرع منتشرا في المجتمع أنه أصبح مباحا، تفكروا في قوله تعالى: {وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (23) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (24)}.

[35] [الجاثية: ٢٣]

فكيف كانت نهايتهم؟ {فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)}[36].

إن الفيصل ليس العادات والتقاليد المنتشرة في المجتمع ولا حتى العقل؛ لأن عقلي يختلف عن عقلك وتفكيري يختلف عن تفكيرك، وبالتالي لو سرنا وراء عقولنا سيكون لكل منا دين خاص به.

الفيصل ليس أنا ولا أنت ولا جارك ولا والدك ولا والدتك ولا المجتمع، وإنما الفيصل هو شرع الله والدليل من الكتاب أو السنة أو القياس أو غيره من مصادر التشريع التي يعرفها علماء الدين.

وعندها تقول: (سمعنا وأطعنا) وتنفذ فورا وتمتثل لأمر الله وأنت راضٍ، وواثق أن كل ما أمر به الله هو خير لنا وكل ما نهانا عنه هو شر لنا. فكل ذلك من لوازم توحيد الربوبية.

وليست المشكلة فقط في إباحة ما حرم الله، وإنما أيضا تحريم ما أحل الله، اعتقادا أن هذا وسيلة تقربهم من الله سبحانه وتعالى.

بعض النساء نجدها تقول أن لبس غير السواد للمرأة لا يجوز، وهذا شيء استحبه فقط بعض العلماء كونه أستر.

قال الشيخ الألباني - رحمه الله - في جلباب المرأة المسلمة: "واعلم أنه ليس من الزينة في شيء أن يكون ثوب المرأة الذي تلتحف به ملونا بلون غير البياض أو السواد كما يتوهم بعض النساء الملتزمات وذلك لأمرين:

الأول: قوله صلى الله عليه وسلم : (طِيبِ النِّساءِ ما ظهَرَ لونُه وخَفِيَ رِيحُه . . .).

والآخر: جريان العمل من نساء الصحابة على ذلك: فعن إبراهيم وهو النخعي أنه كان يدخل مع علقمة والأسود على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فيراهن في اللحف الحمر .

وعن ابن أبي مليكة قال: رأيت على أم سلمة درعا وملحفة مصبغتين بالعصفر .

وعن القاسم - وهو ابن محمد بن أبي بكر الصديق - أن عائشة كانت تلبس الثياب المعصفرة وهي محرمة".

[36] سورة الزخرف

أيضا نجد من يحرم على نفسه الزواج تقربا لله مع أنه لا رهبانية في الإسلام، وهذا كله تحريم لما أحله الله وهو خطير على الإيمان كخطورة تحليل ما حرم الله.

فلا نشدد على أنفسنا بتحريم الحلال ولا نفرط في ديننا بتحليل الحرام.

فلنحذر من أن نتقول على الله بغير علم نحرم حلالا أو نحلل حراما فهو والله أمر عظيم، قال تعالى: {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ}[37].

فعندما تتحدث إحدى النساء عن مبارة لكرة القدم - وكثير منهن لا يفقهن فيها كثيرا - تجد من يقول لها لا تفتي فيما لا تفقهين فيه، نفس هذا الشخص بعد خمس دقائق قد يفتي في الدين ويقول هذا حلال وهذا حرام، وكأن الدين مباح لكل إنسان ليتكلم فيه برأيه.

هل تعرفون حكم الإفتاء بغير علم؟

حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها فقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[38].

وذلك غير إضلال الناس، فالمفتي بغير علم ضلَّ عن الحق، وأضل غيره ممن اتبعه في فتواه.

عرفنا معاني الربوبية بفضل الله ولكن هل تعرفون أنه رغم فضل الله على عباده جميعا وربوبيته لهم جعل هناك ربوبية خاصة وعناية خاصة بعباده المؤمنين؟

فربوبية الله لخلقه على نوعين:

[37] [النور: ١٥]
[38] [الأعراف: 33]

1- الربوبية العامة: وهي لجميع الناس؛ بَرِّهم وفاجرِهم مؤمنِهم وكافرِهم؛ وهي خلقه للمخلوقين، ورزقُهم، وهدايتهم، لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

2- الربوبية الخاصة: وهي تربيته لأوليائه المؤمنين، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

فهل استشعرت هذه الربوبية الخاصة من قبل في حياتك؟

ألم يقرر أحدنا يوما أن يأتي بمعصية ثم يجد أن كل الأبواب والطرق أغلقت أمامه فلم يستطع فعلها أبدا؟

حين تقع في ذلك تذكر عناية الله بك وحفظه لك من أن تقع في المعصية.

ألم ينوي أحدنا فعل خير ذات مرة فإذا بأبواب التيسير تفتح له من حيث لا يحتسب؟

إذا حصل معك ذلك فاحمد الله، واسجد له شكرا، وتذكر أن هذا من فضله وربوبيته وعنايته الخاصة وتوفيقه لعباده المؤمنين.

ألم تقرأ في كتاب الله كيف حفظ الله يوسف عَلَيْهِ السَّلام عندما همت به امرأة العزيز وهم بها ولكنه لم يفعل فقد صرفه الله عن ذلك؛ قال تعالى: {كَذَلِكَ لنصرف عنهُ السُّوء والفحشاء} لماذا؟ {إنه من عبادنا المخلصين}، فعصمه الله منها من حيث لا يشعر وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما فِي قوله تعالى: {يحول بين المرء وقلبه} قال: يحول بين المُؤْمِن وبين المعصية التي تجره إلى النار.

وهم رجل بمعصية فخرج إليها فمر فِي طريقه بقاص عَلَى النَّاس فوقف عَلَى حلقته فسمعه يَقُولُ: أيها الهامُّ بالمعصية أما علمت أن خالق الهمة مطلع عَلَى همتك فوقع مغشياً عَلَيْهِ فما أفاق إلا من توبة.

هل اهتز قلبك ودمعت عيناك وأنت ترى عناية الله لك في كل شيء فيك أو حولك أو حتى في القوانين التي وضعها لتحميك وتحمي المجتمع؟ فماذا تفعل مقابل كل هذه النعم وهذا الفضل؟ فكر جيدا وسنعرف الإجابة عند حديثنا عن توحيد الألوهية.

واحذر أن تقع في أي ناقض من نواقض توحيد الربوبية!

فكل معنى من معاني الربوبية يكون له مضاد من وقع فيه فقد هلك وناقض توحيد الربوبية.

فما الذي يضاد توحيد الربوبية؟

البعض بعد كل ما عرفناه من عظمة خلق الله وعنايته بهم ورزقه لهم، وما يتجلي من مظاهر ربوبيته المبثوثة في كل ما في الكون من مخلوقات يخالف العقل والفطرة وكل نواميس الكون التي تكاد تنطق لتقول أن لي ربا خالقا عظيما، ثم يتجرأ وينكر وجود الله ويقول أن هذا الكون إنما وجد بالصدفة البحتة!

إذا يضاد توحيد الربوبية الإلحاد، وإنكار وجود الرب عز وجل.

فإن آمن بأن لهذا الكون خالقا مدبرا فلابد أن يعترف بأنه الملك المتصرف في ملكه كيف يشاء.

فمن أتى بشيء يناقض مِلكه ومُلكه لهذا الكون بأن اعتقد أن هناك متصرف مع الله عز وجل في أي شيء؛ من تدبير الكون، من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب خير، أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، أو كالعظمة، والكبرياء، ونحو ذلك، فقد ناقض توحيد الربوبية.

كم من المسلمين الذين يحرصون على قراءة حظك اليوم ومطالعة الأبراج والكف والفنجان والودع، وكأنهم يعتقدون أن لأحد غير الله أن يعلم الغيب!

أو يعظمون أحدا من الخلق حتى ولو كان عالما أو شيخا أو زوجا ويقدمون كلامه على كلام الله!

ربك الملك لا يقبل أن ينازعه أحد في ملكه طرفة عين.

ولذلك يضاد توحيد الربوبية أن بأن يعتقد الإنسان أن هناك متصرف مع الله عز وجل في أي أمر من أمور الربوبية.

وهذا الخالق له المُلك والحق وحده في أن يضع القوانين والتشريعات التي تنظم أمور خلقه، فهو الرب وحده، وربوبيته شاملة لأمره الكوني والشرعي.

فمن اعتقد وجود مشرع مع الله عز وجل فقد ناقض توحيد الربوبية.

فليحذر كل من يخالف شريعة الله واتخذ قوانينا وضعية، أو حتى مجرد أن يرضى بها.

وبهذا نكون قد عرفنا أول نوع من أنواع التوحيد الثلاثة وهو توحيد الربوبية

ودعونا نتفكر في بعض مخلوقات الله من خلال هذه القصيدة:

لله في الآفاق آيات لعل أقلها هو ما إليه هداك

ولعل ما في النفس من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك

و الكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيراً لها أعياك

قل للطبيب تخطفته يد الردى ! من يا طبيب بطبه أرداك ؟

قل للمريض نجا و عوفي بعدما عجزت فنون الطب ! من عافاك ؟

قل للصحيح يموت لا من علة ! من بالمنايا يا صحيح دهاك ؟

قل للبصير و كان يحذر حفرة فهوى بها ! من ذا الذي أهواك ؟

بل اسأل الأعمى خطى بين الزحام بلا اصطدام ! من يقود خطاك ؟

قل للجنين يعيش معزولاً بلا راع و مرعى ! من الذي يرعاك ؟

قل للوليد بكى و أجهش بالبكاء لدى الولادة ! من الذي أبكاك ؟

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله ! من ذا بالسموم حشاك ؟

واسأله ! كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا و هذا السم يملأ فاك ؟

واسأل بطون النحل ! كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد ! من حلاك ؟

بل اسأل اللبن المصفى كان بين دم و فرث ! من الذي صفاك ؟

وإذا رأيت الحي يخرج من حنايا ميت فاسأله ! من أحياك ؟

قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى عن عيون الناس ! من أخفاك

قل للنبات يجف بعد تعهد و رعاية ! من بالجفاف رماك ؟

وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله ! من أرباك ؟

وإذا رأيت البدر يسري ناشراً أنواره فاسأله ! من أسراك ؟

واسأل شعاع الشمس يدنو وهو أبعد كل شيء ! ما الذي أدناك ؟

قل للمرير من الثمار ! من الذي بالمر من دون الثمار غذاك ؟

وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله ! من يا نخل شق نواك ؟

وإذا رأيت النار شب لهيبها فاسأل لهيب النار ! من أوراك ؟

وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فسله ! من الذي أرساك ؟

وإذا ترى صخراً تفجر بالمياه فسله ! من بالماء شق صفاك ؟

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فسله ! من الذي أجراك ؟

وإذا رأيت البحر بالملح الأجاج طغى فسله ! من الذي أطغاك ؟

وإذا رأيت الليل يغشى داجياً فاسأله ! من يا ليل حاك دجاك ؟

وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً فاسأله ! من يا صبح صاغ ضحاك ؟

ستجيب ما في الكون من آياته عجب عجاب لو ترى عيناك

ربي لك الحمد العظيم لذاتك حمداً و ليس لواحد إلاك

يا مدرك الأبصار و الأبصار لا تدركك له و لكله إدراكا

إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين علاك

يا منبت الأزهار عاطرة الشذى

يا مجري الأنهار عاذبة الندى

ما خاب يوما من دعا و رجاك

يا أيها الإنسان مهلاً !!! ما الذي بالله جل جلاله أغراك ؟

توحيد الألوهية

ذكرنا القليل من فضل الله على عباده ومخلوقاته، وسبحت قلوبنا في الكون الفسيح تتفكر في عظمة الخالق وإبداعه ورعايته لنا ونعمه علينا، وعرفنا معنى توحيد الربوبية، والذي يطلق البعض عليه تعبير "توحيد الله بأفعاله".

فما أثر تلك المعرفة عليك؟ وما هو موقفك من هذه النعم؟ أو ما هو واجبك تجاه ربك بعد معرفتك أنه الخالق الذي يرزقك ويتولاك بنعمه ويحيطك بعنايته؟

وذكرنا قول الله عز وجل: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32)}[39].

وقلنا أن نتذكر هذه الآية والتي تذكرنا بالنتيجة الطبيعية لمعرفتنا لربوبية الله وهي:

أن نتقيه، وأن نعبده وحده لا شريك له، وأن نشكره على نعمه.

وذلك الإحساس بالشكر لنعم الله هو الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقوم حتى تتفطر قدماه وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : {كانَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، إذَا صَلَّى قَامَ حتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ، قالَتْ عَائِشَةُ: يا رَسولَ اللهِ، أَتَصْنَعُ هذا، وَقَدْ غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ، فَقالَ: يا عَائِشَةُ أَفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا}[40].

فماذا نفعل نحن مع كل هذه المعاصي وهذا التقصير؟

[39] سورة يونس
[40] رواه مسلم

إذا كنا لا نستطيع أن نعد نعم الله علينا، بل لا نستطيع أن نعد النعم الموجودة في نعمة واحدة؛ قال تعالى: {وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[41].

فلا أقل من أن نعبر عن شكر الله على نعمه بعبادته وحده لا شريك له، واتباع أوامره واجتناب نواهيه.

تخيل وأنت تعطي ابنك هدية فإذا به يذهب ليشكر صديقه على الهدية!

ولله المثل الأعلى، كيف بعد كل هذه النعم العظيمة من الله نجد البعض يصرف عبادته لغير الله أو يشرك معه عبادة غيره، أو يعصيه؟

وليس فقط عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من المعبودات المعروفة، وإنما أيضا عبادة الزوج أو المال أو الأولاد، ولا تستغرب من ذلك فكم من امرأة فضلت حب زوجها على حب الله، وطاعة زوجها على طاعة الله.

كم من رجل عبد المال أو اتخذ هواه وشهواته إلاها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تعِس عبدُ الدينارِ ، تعِس عبدُ الدرهمِ ، تعس عبدُ الخميصةِ[42]، تعس عبدُ الخميلةِ[43]، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ)[44].

وهذا ما يتحدث عنه النوع الثاني من أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية.

وعندما نقول الألوهية نتذكر فورا اسم الله "الإله"، ومعناه: المعبود، أو المستحق للألوهية والعبادة.

[41] [ابراهيم: ٣٤]
[42] ثوبٌ أسْوَدُ أو أحمرُ له أعْلامٌ.
[43] القطيفة.
[44] رواه البخاري

إذا توحيد الألوهية هو:

إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله كائناً من كان، كما قال تعالى : {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ }[45]، وقال تعالى : {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[46]، وغير ذلك من الآيات .

وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله؛ أي لا معبود "بحق" إلا الله.

لا يُعبد من دون الله لا عيسى ولا مريم ولا ملك ولا شجر ولا بقر ولا شمس ولا كائن من كان، وكل من عبد من دون الله فعبوديته باطلة.

وشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن نفي (لا إله) وإثبات (إلا الله)، فنثبت جميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة لله، وفي نفس الوقت ننفي العبادة عن كل ما سوى الله كائنا من كان كما قال تعالى : {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا }[47].

ويمكن أن يعرف أيضا بأنه : توحيد الله بأفعال العباد.

لأننا هنا نتحدث عن أفعال العباد، بأن تكون كل أفعالهم - من صوم وصلاة وزكاة وتوكل ودعاء وغيرها - خالصة لله.

وهذا النوع من التوحيد هو الذي وقع فيه الخلل، ومن أجله بُعثت الرسل، وأُنزلت الكتب، ومن أجله خُلق الخلق، وشُرعت الشرائع، وفيه وقعت الخصومة بين الأنبياء وأقوامهم فأهلك المعاندين ونجى المؤمنين.

[45] [الإسراء: 23]
[46] [طـه: 14]
[47] [النساء: 36]

فالقلوب والعقول والفطر السليمة تدرك وجود خالق لها، ولكن هل عبدت هذا الخالق وحده أم أشركت معها غيره؟

فمشركوا مكة كانوا يؤمنون بوجود الله، فالإيمان به فطرة مغروسة في النفوس.

قال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[48].

وقال تعالى: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[49].

ولكن المشكلة في أنهم صرفوا العبادة لغيره، وحول هذا يدور معنى توحيد الألوهية.

فمن أخل به بأن صرف شيئا من العبادة لغير الله فقد خرج من ملة الإسلام، ووقع في الفتنة، وضل عن سواء السبيل، نسأل الله السلامة.

ومن أجل توحيد الألوهية أنزل الله الرسل؛ فكان أول ما بدأ به الرسل كلهم دعوتهم هو لا إله إلا الله، قبل كل التشريعات وبيان الحلال والحرام؛ ولهذا نجد اختلاف الشرائع السماوية في التحليل والتحريم، إلا أن دعوتهم الموحدة كانت للا إله إلا الله، لبيان أنه لا معبود لحق إلا الله.

الإله الذي خلقهم واستحق أن تتوجه إليه القلوب كلها والجوارح كلها بمختلف العبادات، وأن تتبرأ من عبادة سواه؛ قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[50]، أي أن كل الأنبياء دينهم واحد هو التوحيد، وإن اختلفت التشريعات.

وقد نسمع أكثر من مصطلح يعبر كلهم عن توحيد الألوهية، فله أكثر من اسم:

1- توحيد الألوهية: لأنه مبني على التأله لله وهو التعبد المصاحب للمحبة والتعظيم.

---

[48] [العنكبوت : ٦٣]
[49] [لقمان : ٢٥]
[50] [النحل: 36]

2- توحيد العبادة: لأن العبد يتعبد لله بأداء ما أمره به واجتناب ما نهاه عنه.

3- توحيد الطلب والقصد والإرادة: لأن العبد لا يطلب ولا يقصد ولا يريد إلا وجه الله سبحانه فيعبد الله مخلصا له الدين.

وتوحيد الألوهية هو الغاية من خلق الإنسان؛ فلم يخلقنا الله سبحانه وتعالى ويسخر لنا الكون بأسره عبثا - تعالى الله عن ذلك - بل إن الجمادات لها وظيفة؛ فالقلم نكتب به، والملعقة نأكل بها، وهكذا.

وإذا انتقلنا إلى النبات لوجدنا أن هناك نباتات للأكل ونباتات أخرى للزينة، وحتى لو لم تكن للزينة أو للأكل فهي ضرورية لتنقية الجو من ثاني أكسيد الكربون.

والحيوانات نأكل لحمها أو نستخدمها في الانتقال وفي حرث الأرض وفي الصيد، وغيرها.

لم يخلق الله الحكيم شيئا عبثا، بل خلق كل شيء لحكمة وهدف عرفنا ذلك أم لم نعرف، بل حتى المخلوقات التي نظن أنها ضارة أو لم تستطع عقولنا أن تبلغ الحكمة من خلقها هناك هدف من خلقها ووظيفة. وما زال العلم يكشف بعض أسرار المخلوقات وما خفي كان أعظم وأكبر.

ولنضرب أمثلة بسيطة:

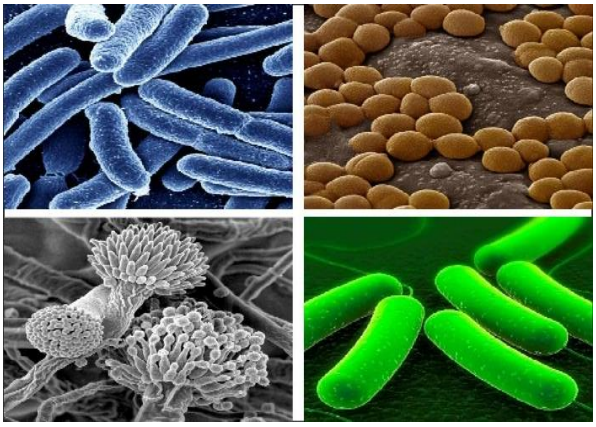

"لا نحب الميكروبات، رغم هناك الكثير من أنواع الميكروبات المفيدة؛ فبعضها يشترك في دعم دورة النيتروجين فيما يسمى تثبيت النيتروجين، وفي تنقية المياه، كما تستخدم أنواع منه في المصنوعات الغذائية لإنتاج مواد غذائية مثل صناعة الجبن والزبادي والخل.

كما تستغل تقنية الميكروبات في إنتاج المضادات الحيوية وإنتاج مواد تُستغل في الصناعة.

وتجرى حاليا بحوث لاستخدام البكتيريا في بناء المنازل عوضا عن استخدام الأسمنت الذي يحتاج إلى طاقة حرارية كبيرة، وذلك بابتكار ملاط يقوم بعمل الأسمنت مع استخدام قليل من الأسمنت.

وبمجرد ولادة الطفل تبدأ عملية استعماره بمختلف البكتيريا وينشأ له مع الوقت مستعمرات بكتيرية خاصة به، فيتكون ما يسمى نبيت جرثومي معوي في الأمعاء الغليظة بعد عام إلى عامين من ولادته.

ويضم أكبر عدد من البكتيريا، وأكبر عدد من الأصناف مقارنة بمناطق أخرى في الجسم؛ للمساعدة في عملية الهضم في الإنسان.

أيضا هناك نبيت جرثومي جلدي يتكون بعد ولادته طبقا لمحيطه البيئي والإنساني، ويتغير بتغيير بيئته وتقدمه في العمر ليحمي الجلد من الميكروبات الضارة. وهذه الميكروبات تعيش مع الجسم في سلام ووئام، فسبحان من سخرها للإنسان.

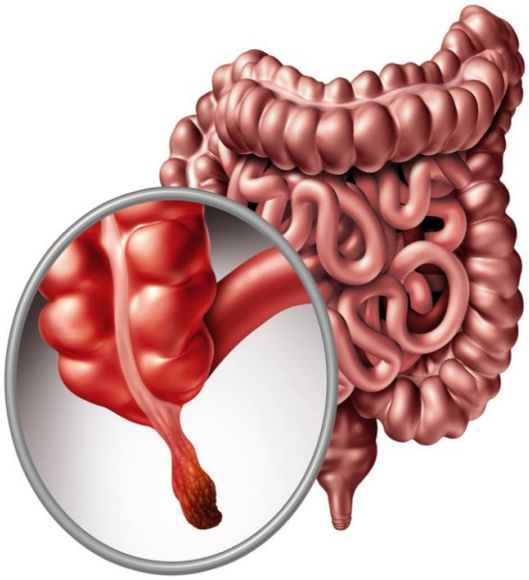

الزائدة الدودية ذلك الجزء الصغير في أحد طرفي الأمعاء الغليظة كان هناك اعتقاد أنه لا فائدة منها ولذلك سموها "الزائدة"، ولكن الله لا يخلق شيئا عبثا، فالأبحاث الجديدة تقول أنه قد يكون لها وظائف وهي:

1- تعد مكانا مناسبا وآمنا للبكتيريا النافعة للجهاز الهضمي، فعند تعرض الجهاز الهضمي لعدوى أو اضطراب تقوم البكتيريا النافعة بالاختباء في الزائدة الدودية، وفور انتهاء المرض أو الاضطراب تعود البكتيريا لمكانها في الأمعاء، وتبدأ بعملها المهم في الجهاز الهضمي.

2- تساعد على تقوية الجهاز المناعي ومحاربة مسببات الأمراض؛ فهي تحتوي على خلايا ليمفاوية تساعد الجسم على محاربة العدوى.

3- تسهم في الحماية من مرض كرون فالأشخاص الذين يملكون زائدة دودية سليمة أقل عرضة لمرض كرون بأربع مرات، وهو التهاب شديد يصيب الجهاز الهضمي ويسبب ألم البطن، والإسهال، وفقدان الوزن.

إذا هل يُعقل أن الجماد والنبات والحيوان لهم وظيفة، والإنسان العاقل المكرم لا وظيفةَ له؟

هل خُلق الإنسان للأكل والشرب والنوم والزواج وتربية الأولاد والعمل ثم يموت وفقط؟ هل يكون كالأنعام؟

إن الإنسان الذي كرمه الله بالعقل وسخر له كل الكائنات لتكون في خدمته لابد له من غاية ووظيفة أسمى؛ يقول الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[51].

إذا فلماذا خلقنا الله؟

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[52].

فهذا هو ما خلقنا الله تبارك وتعالى لأجله، ألا وهو عبادته سبحانه وتعالى.

نستحي من الله عندما نَعلم أننا ما خُلقنا إلا للعبادة ثم نقيس ذلك على يومنا - الذي هو من رصيد عمرنا - لنرى ما هو قدر تحقيقنا للعبادة فيه فلا ينجح إلا القليل.

من منا عندما يستيقظ من نومه يتذكر قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[53]؟

[51] [المؤمنون: 115]
[52] [الذاريات:56]
[53] [الأنعام: 162]

إننا لم نخلق إلا للعبادة، كثير من المسلمين قلَّ ما تأتي العبادة في حياتهم، وإن كانت موجودة تكون مهمشة .

نجد من يقول: أنا أصلي، متى؟ عندما أنهي مهماتي، لا، الصلاة رقم واحد في حياتك ثم كل الأشياء تأتي بعدها.

وهكذا لابد أن تكون الأولوية في حياتنا كلها لعباداتنا.

ومن فرَّط فلا زال أمامه الفرصة لتصحيح ما مضى وتوجيه بوصلة يومه بل وحياته كلها وفق الوظيفة التي خُلِقنا من أجلها.

يقول سبحانه وتعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}[54].

هذا الكافر الذي لم يدرك الغاية والهدف من خلقه كانت حياته بلا معنى؛ فهو يعيش فقط ليتمتع ويشبع شهواته ويأكل كما تأكل الأنعام، فماذا استفاد بتلك المتعة المؤقتة؟ ذهبت تلك المتعة وبقي العقاب والمصير المحتم لأمثال من لم يفقهوا الغاية من خلقهم وهو النار والعياذ بالله.

ولذلك فالعبادة هي التي تميزنا عن غيرنا من المخلوقات.

يقول أحدهم أنا مسلم، ولكنه لا يصلي ولا يصوم وقد يسرق وقد يرتشي وقد يغش وقد .... وقد..... فما دليله على أنه مسلم؟ و ما الفرق بينه وبين غير المسلم ؟

لا يُعرف المسلم إلا بطاعة الله عز وجل، وأقرب مثال على ذلك الحجاب الشرعي؛ ما الذي يميز المسلمة عن غيرها؟ حينما أراها ولم أعرف ديانتها بعد، عندما نمشي في الشارع ونرى أختًا لا ترتدي الحجاب الشرعي فأول ما يخطر في بال من يراها أنها غير مسلمة حتى يثبت العكس، فهل ترضيها لنفسك يا أختي؟ هل ترضين أن يشكك الناس في إسلامك، وأن يعجزوا عن التمييز إذا كنتِ مسلمة أم لا ؟

[54] [محمد: 12]

إذًا يعرف المسلم بعبادته، فما معنى العبادة ؟

العبادة ببساطة: هي الطاعة المطلقة لله عز وجل.

أو هي اسم جامع لما يحبه الله من الأعمال الظاهرة والباطنة.

بمجرد سماع الأمر أو النهي من الله فورا نقول سمعنا وأطعنا، فورا ننفذ.

هل رأيت إبراهيم عليه السلام عندما أُمر أن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام ماذا فعل؟

رغم أن الأمر كان بذبح ابنه، لم يتردد ولم يناقش ولم يجادل ولم يسأل عن السبب وإنما امتثل فورا، {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}[55]؛ فالإمامة أتت من الامتثال لأمر الله عز وجل.

ونحن يأمرنا ربنا بأمور هي أهون كثيرا من أمره لإبراهيم بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام فهل امتثلنا وأطعنا ونفذنا؟

إن أيقنت أنك ما خلقت إلا للعبادة فكل شيء سيهون عليك، فلن تتهاون أو تجادل في أي أمر من أمور العبادة بعد الآن، فعندما تلتحق بوظيفة لابد أن تقوم بمتطلبات تلك الوظيفة كاملة وإلا فأنت معرض للطرد أو الخصم من راتبك، ووظيفتك الأساسية في الحياة هي العبادة.

نضرب بعض الأمثلة من واقع حياتنا، ونراجع أنفسنا وعباداتنا ومقدار انقياد وإذعان قلوبنا وجوارحنا لأوامر الله.

نقول مثلاً: لماذا يا أختي لا ترتدين الحجاب الشرعي؟ تقول عندما أتزوج، أو بعد إنهاء دراستي، من يضمن لكِ أن تحيي إلى أن تنهي الدراسة؟ من يضمن لكِ أن تحيي إلى أن تتزوجي؟

وإنما إذا سمعتِ الأمر بالحجاب قولي فورا سمعتُ و أطعت يا ربي.

[55] [البقرة: 124]

فرق كبير بيننا وبين أمهات المؤمنين والصحابيات، فرق كبير بين حرصهن على ستر أنفسهن وطاعة ربهن وبين حال كثير من بنات المسلمين اليوم.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: {يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله: {وليضربن بخمرهن على جيوبهن } شققن مروطهن فاختمرن بها}[56].

عندما سمعن الآية تأمرهن بالحجاب لم ينتظرن حتى يذهبن إلى السوق وشراء ما يتحجبن به، لا يمكن أن يخرجن من البيت بعد ما صدر الأمر الإلهي بالحجاب من غير أن ينفذن الأمر، فماذا فعلن؟ شققن مروطهن فاختمرن بها، لأنه من المستحيل بعدما أمرهن الله بالحجاب أن يخرجن من بيوتهن من غيره أبدا.

إلى متى ستتحكم فينا شهواتنا وهوانا وننسى أوامر الله سبحانه وتعالى؟ إلى متى سنبيع آخرتنا بدنيا فانية؟

وليس معنى الحجاب أن ألبس ما يستر جزءا من شعري أو أن أرتديه وأنا أضع على وجهي المساحيق، ولا معناه أن أستر شعري ثم أرتدي بنطالا أو ملابس شفافة أو ملابس ضيقة تظهر كل تفاصيل جسمي، فالحجاب الشرعي له شروطه؛ من أن يكون واسعا لا يصف شكل الجسم، ليس شفافا، يغطي جميع البدن - على خلاف في الوجه والكفين - وليس فيه تشبه بالكفار ولا بالرجال، ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (صِنْفانِ مِن أهْلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما، قَوْمٌ معهُمْ سِياطٌ كَأَذْنابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بها النَّاسَ، ونِساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مُمِيلاتٌ مائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَها، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِن مَسِيرَةِ كَذا وكَذا).

إما أن تحشري مع أمهات المؤمنين أو مع الكاسيات العاريات فاختاري لنفسك.

[56] رواه البخاري

لو سألنا من يفرط في صلاته وقلنا له: لماذا لا تصلي؟ قد تكون الإجابة مشغول أو الدراسة أو العمل أو التعب، المبررات لا تنتهي، ولو استشعر من يقول ذلك فعلا معنى العبودية لن يقوله أبدًا .

هل تعرف منزلة الصلاة في الإسلام؟ إنها كعمود الخيمة للخيمة، فهل ستظل الخيمة منصوبة دون عمود؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رأسُ الأمرِ الإسلامُ ، وعمودُه الصلاةُ)[57].

هل هناك موعد أهم من أقابل رب العالمين؟ يا لها من قسوة قلب عندما نتقلب في نعم الله ثم لا نصلي له! ننسى أن (أولُ ما يحاسبُ بهِ العبدُ يومَ القيامةِ الصَّلاةُ، فإنْ صَلَحَتْ، صَلَحَ سائِرُ عَمَلِه، و إنْ فَسَدَتْ فَسَدَ سائِرُ عَمَلِه)[58] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فلتنته قلوبنا وعقولنا إلى قوله: " و إن فسدت، فسد سائر عمله "، فكيف لا نحافظ على صلاتنا بعد ذلك؟

هل تضمن الحياة ولو لحظة ؟ قد يدخل النفس ولا يخرج مرة أخرى فلنبدأ فورا.

أمر آخر قد لا ننتبه إليه أنه من مسئولياتنا، وأننا محاسبون عليه، وقد نقصر فيه؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّتِه، والأمير راعٍ، والرجل راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولدِه، فكلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤول عن رعيَّتِه)[59].

فهل قمنا بأداء مسؤولياتنا تجاه بيوتنا وأزوجنا وأولادنا؟

هل حافظنا على بيوتنا نظيفة هادئة وجعلناها سكنا لأزواجنا؟

هل ربينا أبناءنا تربية إسلامية صحيحة وحافظنا على صحتهم النفسية قبل الجسمانية؟ أم قدمنا رغباتنا ومصالحنا الشخصية على مصلحة الأسرة؟

هل ضيعنا مسئوليتنا الأساسية بقضاء الوقت على وسائل التواصل أو أمام التلفاز؟ أم قدمنا عملنا ووظائفنا على وظيفتنا الأساسية في بيوتنا؟

---

[57] رواه الترمذي
[58] صحيح الترغيب
[59] متفق عليه

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[60]، إذا سمعت الأمر فقل فورا سمعت وأطعت، قل علمت فلزمت العبادة يا رب، من قبل أن يأتي اليوم الذي من كثرة ما قلت سمعت وعصيت -حتى لو بلسان حالك لا بلسان قولك - تسمع الحق ولا تدرك أنه حق؛ قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[61]؛ يعني من كثرة المعصية والذنوب هذا الران يغطي القلب فيأتي عليك يوم وترى الحق باطلا والباطل حقا -نسأل الله العافية- فهيا نبادر للتوبة وعبادة المولى عز وجل.

ولكن ما معنى أن أكون عبدا لله؟ أو ما هو معنى العبد؟

كلمة عبد لها معنيان:

1- معنى عام بمعنى: المذلل المسخر.

يشمل الكون كله - أي أن كل الكون عبد لله عز وجل- فنحنُ مسخرون شئنا أم أبينا، خاضعون لقدر الله عز وجل، لا يمكن أن نفعل شيئًا دون مشيئته.

فكيف يكون الكافر ذليلا لله تعالى؟

لو أراد الله بهذا الكافر مرضًا هل يستطيع أن يقول لله أنا لا أريد أن أمرض الآن؟

بالطبع لا فهو عبد لله رغم أنفه.

هل إن أراد الله عز وجل بدولة عظيمة بها من العلم والتكنولوجيا ما بها إعصارا، من يستطيع دفعه؟ لا أحد يستطيع، لأنهم عباد لله عز وجل.

انظروا ماذا يفعل فيروس متناهي في الصغر في بلدان العالم حتى المتحضر منها؟!

---

[60] [الذاريات: 56]
[61] [المطففين: 14]

2- معنى خاص: ونسأل الله أن نكون منهم، وهو: العابد المحب المتذلل لحبيبه سبحانه وتعالى، وهذا المعنى لا ينطبق إلا على المسلمين فقط فهم عباده المكرمون.

وإذا استشعرت معنى العبودية ولذة العبودية لله تعالى، إن علمت أو أيقنت بقلبك أنك ما خُلقت إلا للعبادة والله لتحققن أعلى منازل العابدين لله - عز وجل- .

أيقنا الآن واتفقنا أننا لم نخلق إلا للعبادة، فهل العبادة أن نقضي اليوم كله بين قرآن وصلاة وصيام؟

كثير منَّا يظنُّ أن العبادة هي الصلاة والصيام والصدقات وفقط، لكن المسلم الفطن يعلم أن كل شيء في حياته عباده، يقول تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين}[62].

شعار المسلم الحق؛ "حياتي كلها لله" بل مماتي أيضا لله.

ألم يقل نبيك صلى الله عليه وسلم تبسمك في وجه أخيك صدقة؟ إذا تبسمك لأخيك عبادة، حسن التبعل للزوج من أكل وتنظيف وغيره عبادة، كوب الشاي لزوجك عبادة، ويقينًا سيصبح بعدها كل ما تقوم به سببًا في رفع مستوى إيمانك، حتى إن اجتمعت مع جارك بنية أنها عبادة لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بالجار لكان كوب الشاي أو العصير له عبادة تزيد إيمانك.

نومك بنية أن تتقوى على العبادة عبادة، أكلك وشربك وضحكك وكل عادة أو تفصيلة في حياتك قد تصبح عبادة، فأي فضل وجود وكرم يَمُنُّ به الإله الكريم علينا؟!

لا تجعل يومك يمر بلا قيمة، قال تعالى : {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)} [63].

نرى زوجةً تُحسن التبعل لزوجها وإذا سألناها لماذا ؟ تقول حتى لا يتزوج بأخرى، نخشى أن تكون ممن ذكروا في الآية.

[62] [الأنعام: 162]
[63] [سورة الكهف]

أو من يحسن تربية أبناءه لكي يشار له بالبنان، فنخشى أن يكون ممن ذكروا فيها أيضا. فهؤلاء تعبوا بلا قيمة.

وحتى يكون يومك كله ذا قيمة فهناك شرط واحد لابد من تحقيقه، فما هو يا ترى؟

النية هي كلمة السر. والقاعدة أن النية تميز العبادات عن العادات.

ونقارن ما بين اثنين: شخص يأكل لشهوة الجوع وآخر يأكل ليتقوى على العبادة وامتثالًا لأمر الله ﴿كُلُوا واشرَبوا﴾، صار أكل الثاني عبادة وأكل الأول عادة.

شخص يلبس ملابس جديدة ليفتخر بها أمام الناس، وآخر يلبس الجديد ليرى الناس أثر نعمة الله وفضله عليه، الأول لا يُؤجر والتاني يُؤجر.

في يوم الجمعة شخص لبس أحسن ثيابه ليكون مظهره جميلًا أمام الناس، والثاني لبس أحسن ثيابه تأسياً بالنبي صلى الله عليه وسلم أيهما العبادة؟ الثاني طبعًا.

مسلمة تنظف بيتها حتى يقول الناس عنها أنها نظيفة أو لأنه روتين يومي، وأخرى تنظفه لأن الإسلام دين النظافة وحثنا عليها، ولأن الله جميل يحب الجمال، وحسن تبعل للزوج، أصبح التنظيف عبادة في حق الثانية أما الأولى تعبت دون أن تحصل على ثواب رغم أنه كان بإمكانها ذلك.

وعلى هذا قس كل ما تقوم به خلال يومك من مهام كنت تظن أنها تعطلك عن العبادات فإذا بك تجعلها عبادة تؤجر عليها، ولذلك نقول (عادات أهل اليقظة عبادات)، لكن النية محلها القلب ولا ننطق بها.

عرفنا كيف أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه وأن بإمكاننا أن نكون من أهل اليقظة ونجعل من عاداتنا عبادات.

ولكن متى يكون العمل عبادة؟

حتى نجيب على هذا السؤال تذكر شعورك عندما تطلب من ابنك أن يساعدك في بعض المهام فيقوم بها على أكمل وجه، ولكنه يظل يتذمر ويتأفف ويتمتم ببعض الكلمات، بالطبع إن هذا التذمر والتأفف يفسد في داخلك ما قام به من عمل.

نذهب لابنتك الأخرى التي دائما ما تعبر لك عن مشاعرها وحبها لك، إذا أقبلت تطبع قبلة على جبينك، وإذا أدبرت تسمعك الكثير من عبارات الحب، ولكن إذا طلبت منها شيئا لا تقوم به أبدا، فهل كلمات الحب كافية بالنسبة لك وتعوض تقاعسها عن القيام بواجباتها؟ بالطبع أيضا لا، فالحب أفعال لا أقوال.

وكذلك العبادة لابد أن يجتمع فيها الأمرين: كمال الحب وكمال الانقياد.

قال الله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[64].

قال شيخ الإسلام بن تيميه رحمه الله: "فمن خضع لإنسان مع بغضه له فليس عابدا له، ومن أحب شيئا دون أن ينقاد له فليس عابدا له، فالعبادة التي أمرنا بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب"[65].

أولا: الحب

هذه العبادة أنت تتقرب بها لله عز وجل، إذا يجب أن تؤديها وأنت مُحبٌّ لله تعالى، يمكن أن نجد شخصين يصليان بجانب بعضهما البعض، أحدهما يقف بالساعات دون أن يشعر بتعب، وحتى لو تعب فهو يشعر بلذة تنسيه تعبه، والآخر لا يستطيع أن يكمل خمس دقائق، الفرق بينهما أن الأول محبٌّ لله الذي يقف بين يديه، و الثاني لم يحب فلم يشعر بلذة الوقوف بين يدي الله عز وجل، قال الله تعالى : {والذِينَ ءامنوا أَشَدُّ حُبًا للهِ}[66]، ولذلك كان الحبيب المصطفى

[64] [الأنبياء: 90]
[65] كتاب العبودية لابن تيمية
[66] [البقرة: 165]

صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تتورم قدماه مع أن الله عز وجل قد غفر له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و لكنه محب لله تعالى فأحب عبادته.

وعن حماد بن سلمة قال : «ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يُطاع اللّه عزَّ وجل فيها إلاَّ وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إمَّا متوضئًا، أو عائدًا، أو مشيعًا لجنازة ، أو قاعدًا في المسجد، قال : فكنا نرى أنه لا يحسن يعصي اللّه عز وجل».

البعض يزعم أنه يحب الله كثيرا، ويعتمد على رحمة الله ومغفرته ويطمع فيها؛ يرتكب الذنب ويقول ربي غفور رحيم، تترك الحجاب وتقول ربي غفور رحيم، وهكذا دائما تقول أنا أحسن الظن بالله. فهل فعلا هي تحب الله؟

إن المحب لمن يحب مطيع، الحب يجعلك تنقاد لأوامر الله عز وجل فورا، وفي نفس الوقت تمتنع عن فعل ما يغضبه.

إذا المحبة التي نقصدها، هي التي يتولد عنها الرجاء والخوف من الله عز وجل، فلابد أن نكون بين الرجاء والخوف، فإن اعتمدنا على الرجاء وحده قاد هذا إلى الاغترار بالله عز وجل، كما قال الحسن البصري - رحمه الله - : "وإن أناسا غرتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، قالوا : (نحسن الظن بالله وكذبوا)؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ".

وعلى النقيض من هذا نجد من يقول كيف سيغفر الله لي رغم أن ذنبي عظيم؟ ويعيش قانطا يائسا خائفا من ذنوبه متوقعا عدم مغفرتها، لو أن الإنسان اعتمد على الخوفِ فقط قاده هذا إلى اليأس.

فإذًا لابد من الأمرين الخوف والرجاء .

ثانيا: الذل

قال تعالى: {إِنَّ الذينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِم مُشفِقُونَ}[67] ، وقال تعالى: {إِنّهمْ كَانوا يُسَارِعونَ في الَخيرَاتِ ويَدعُونَنَا رَغَباً ورَهَبًا وكَانُوا لنَا خَاشِعِينَ}[68]؛ والأنبياء لنا أسوة .

ولكن ما معنى تحقيق الذل بين يدي الله ؟

الذل هنا معناه أن المسلم يروض قلبه ويعود نفسه وجوارحه على الذل لله عز وجل ويشمل ذلك التذلل والخضوع لقدر الله، ثم أيضًا الذل للاستجابة لشرع الله.

إذًا الذل أن أرضى بقدر الله، وأن أستجيب لشرع الله، هذا في حد ذاته ذل لله سبحانه وتعالى.

طاعتك لله سبحانه وتعالى وإتباعك لأوامره هذا ذل وافتقار لله سبحانه وتعالى؛ فتحقيق الذل إذًا يكون بتحقيق العبودية لله تعالى وحده، والعبد ذليل لربه تعالى في ربوبيته وفي إحسانه إليه.

قال ابن القيم – رحمه الله - : " فإن تمام العبودية هو : بتكميل مقام الذل والانقياد، وأكمل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقيادًا وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لعزِّه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه، وإنعامه عليه؛ فإن مَن أحسن إليك : فقد استعبدك، وصار قلبُك معبَّداً له وذليلاً، تعبَّدَ له لحاجته إليه على مدى الأنفاس، في جلب كل ما ينفعه، ودفع كل ما يضره " .

فهل شعرنا في عباداتنا بكمال الذل والانقياد وصار قلبنا معبَّدا لله وذليلا له؟

لنأخذ مثالا على ذلك الصلاة:

قد يقول أحدهم: أنا أصلي ولكن صلاتي لم تنهني عن الفحشاء والمنكر فلماذا؟

[67] [المؤمنون: 57]
[68] [الأنبياء: 90]

لأنك لم تقم بركني العبادة، المحبة والذل.

إذًا قُم بالعبادة وأنت سعيد، تصلي وأنت سعيد، تخرج المال و أنت سعيد.

بعض السلف كان إذا جاءهم من يسألهم الصدقة يقول: مرحبًا بمن يحمل صدقاتنا إلى الله عز وجل، مرحبًا بسفرائنا إلى الله تعالى.

وأتى رجل النبي ﷺ وهو يقرأ : (ألهاكم التكاثر)، قال: (يقول ابن آدم : مالي مالي، قال: وهل لك، يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت؟)[69].

عندما تأكل الطعام هل يتبقى منه شيء؟ أو عندما تلبس الملابس حتى تبلى تُرمي ولا تنتفع بها، كل هذا يفنى ويهلك، لكن ما تتصدق به هو الباقي .

إذا المفروض أن نشعر باللذة في المحبة.

فهل كل العبادات درجة الذل فيها بنفس القدر ؟

قد يظهر الذل في عبادة أعظم منه في عبادة أخرى، وأعظم العبادات التي فيها عظيم الذل والخضوع لله هي الصلاة المفروضة، والصلاة ذاتها تختلف هيئاتها وأركانها في مقدار الذل والخضوع فيها، وأعظم ما يظهر فيه ذل العبد وخضوعه لربه تعالى فيها السجود.

إذا نعيش بين معاني الحب والذل، بين الرجاء والخوف لا أمن ولا قنوط، فالمسلم يرجو ربه ولا ييأس ولا يقنط، ولكن يخاف ولا يأمن أيضًا، فيخاف عقوبته، ويخاف الذنوب وشرها.

ولكن رغم وجود ذلك الخوف وهذا الرجاء وهما دافعان قويان للعبادة إلا أننا نجد البعض قد يتكاسل عن أداء العبادات. البعض منا يريد حفظ القرآن مثلا، أو المواظبة على قيام الليل أو صيام الاثنين والخميس، ولكن تظل هذه العبادات مجرد أماني دون تطبيق.

[69] رواه مسلم

هذا بسبب أننا افتقدنا صدق العزيمة: وهو ترك التكاسل والتواني وبذل الجهد في أن يصدق قوله بفعله؛ قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُون(3)}[70]، وهو شرط في وجود العبادة، فمن دون صدق العزيمة يسيطر على الإنسان الكسل والتواني وطول الأمل يُسوف بالعبادة، فيضيع عمره كله وهو يؤجل بالعبادة.

إياك والكسل، وادعو الله أن يعينك ويوفقك؛ إذا أردت حفظ القرآن اسأل الله تعالى، وإذا أردت العلم الشرعي اسأل الله تعالى، وإذا أردت قيام الليل اسأل الله تعالى؛ {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ}[71]، فاسأل الله وتوكل عليه يعينك بإذن الله .

الحمد لله عزيمتي قوية وصادقة وعندي حماس لأداء العبادات فهل يكفي هذا؟

يقول الله تعالى في سورة الغاشية: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (4)}[72]، لقد تعبت وعملت ولكنها تصلى حامية، لماذا؟ لأنها لم تحقق شروط العبادة فالله لا يقبل العمل حتى يتحقق فيه شرطان:

الأول إخلاص النية.

والثاني موافقة الشرع الذي أمر الله تعالى.

الشرط الأول: إخلاص النية

أن يكون مراد العبد بجميع أقواله وأعماله الظاهرة والباطنة ابتغاء وجه الله تعالى، قال الله عز وجل: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ}[73].

[70] [سورة الصف]
[71] [الحجر: 21]
[72] [سورة الغاشية]
[73] [البينة: 5]

وقال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه مسلم: (أنا أغنى الشُرَكَاءِ عن الشركِ، من عَمِلَ عملًا أشرَكَ فيه معي غيري ، تَركتُه وشِركِه).

ذلك الإخلاص الذي يعكره الرياء أو الغفلة عن استحضار النية أحيانا، فإرادة غير وجه الله بالعمل الصالح يجعل صاحبه محروما من الأجر؛ فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه رحمهم الله حديثَ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من تعلَّم علمًا مما يُبتغى به وجهُ الله لا يتعلَّمه إلا ليصيب عرَضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنَّة يوم القيامة)؛ يعني: ريحها، وروى الترمذي رحمه الله من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من طلَب العلم ليُماريَ به السفهاء، أو يجاريَ به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار). فلنراجع كل عباداتنا وأعمالنا ونصفيها بمصفاة الإخلاص وننقيها من أي شوائب قد تعلق بها.

والرياء ليس هو الخطر الوحيد، فالغفلة أيضا حرمتنا الكثير من الأجور حين فقدت أعمالنا النية:

تقف الأم في حر المطبخ في رمضان دون نية وإنما مجرد إعداد الطعام فتفقد الحصول على أجر تفطير صائم، الأم في المنزل أو المعلم أو الطبيب أو الموظف في عمله قد يؤدي مسئولياته على أنها عادة فلا ينال شيئا من الثواب، أو يحول عمله لعبادة بنية خالصة لوجه الله.

ثانيا : موافقة الشرع الذي أمر الله تعالى به

فأي إنسان يتعبد لله بعبادة مبنية على سبب لم يثبت بالشرع فهي عبادة مردودة ، ليس عليها أمر الله ورسوله، ومثال ذلك الاحتفال بليلة السابع والعشرين من رجب يدّعون أن النبي صلى الله عليه وسلم عرج به في تلك الليلة فهو غير موافق للشرع مردود، فيجب في العبادة أن تكون:

- موافقة للشريعة في (جنسها)؛ فلا يضحي الإنسان بدجاجة لأن الأضحية لا تكون إلا من بهيمة الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم.

- موافقة للشريعة في (قدرها)؛ فلو أن أحدا من الناس قال إنه يصلي الظهر ستا، فهل هذه العبادة تكون موافقة للشريعة؟ كلا ؛ لأنها غير موافقة لها في القدر .

- موافقة للشريعة في (كيفيتها)؛ من توضأ فغسل رجليه ثم مسح رأسه، ثم غسل يديه، ثم غسل وجهه، فهل يصح وضوؤه؟ بالطبع لا لأنه خالف الشرع في الكيفية.

- موافقة للشريعة في (زمانها)؛ فلا يصح صيام من يصوم رمضان في شعبان أو في شوال، ولا تصح صلاة من يصلي الظهر مثلا بعد خروج وقتها.

- موافقة للشريعة في (مكانها): فلو أن إنسانا وقف في يوم عرفة بمزدلفة، لم يصح وقوفه، لعدم موافقة العبادة للشرع في مكانها، وكذلك لو أن إنسانا اعتكف في منزله فلا يصح ذلك؛ لأن مكان الاعتكاف هو المسجد ولهذا لا يصح للمرأة أن تعتكف في بيتها؛ لأن ذلك ليس مكانا للاعتكاف.

ومن البدع المنتشرة كثيرا وقد ينخدع بها البعض الرسائل التي تصلنا عن حملات الاستغفار والذكر وغيرها، أيضا تكرار البسملة أو سور معينة من القرآن عدد معين من المرات، بنية الشفاء أو قضاء الحوائج، فأين دليل من يفعل ذلك من الكتاب والسنة؟ وهل غاب فضلها عن الصحابة والسلف الصالح وعرفناه نحن؟ مالهم كيف يحكمون؟

الحمد لله حققت معنى توحيد الألوهية ولكن علي الحذر من كل ما يضادها فما هو ضد توحيد الألوهية؟

ما يضاد توحيد الألوهية:

قلنا أن توحيد الألوهية هو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله كائناً من كان.

إذا عكسه الشرك بالله.

والشرك لغة : هو اتخاذ الشريك، أي أن يُجعل واحداً شريكاً لآخر.

تخيل عظم أن يعرف الإنسان أن الله هو من خلقه واعتنى به ورزقه ثم بدلا من يشكره ويعبده يذهب ويعبد معه غيره!

والشرك نوعان:

شرك أكبر وهذا يخرج صاحبه من الإسلام.

وشرك أصغر لا يخرج صاحبه من الإسلام لكن يجعل إسلامه غير كامل.

الشرك الأكبر:

أن يصرف العبد لغير الله ما هو حق الله تعالى؛ فيجعل الإنسان لله ندا (والند هو النظير والمثيل).

ولكن هل جميع المسلمين متأكدون من نجاتهم من هذا النوع من الشرك؟

للأسف يقع فيه البعض وهو لا يعلم؛ فقد يجعل العبد لله ندا أو شبيها أو مثيلا:

1- إما في أسمائه وصفاته، فيسميه بأسماء الله ويصفه بصفاته، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[74]، ومن الإلحاد في أسمائه: تسمية غيره باسمه المختص به أو وصفه بصفته كذلك، كما لو سميت أحدًا بـ: (العزيز والسيد والحكيم... وما أشبه ذلك)، فإن هذا لا يسمى به غير الله؛ أيضا إذا قصد بالاسم معنى الصفة، وليس محلى بـ: (ال)، فإنه لا يسمى به؛ ولهذا غيَّر النبي صلى الله عليه وسلم كنية أبي الحكم التي تكنى بها؛ لأن أصحابه يتحاكمون إليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن

[74] [الأعراف: 180]

الله هو الحكَم، وإليه الحُكم))، ثم كناه بأكبر أولاده شريح، فدل ذلك على أنه إذا تسمى أحد باسم من أسماء الله ملاحظًا بذلك معنى الصفة التي تضمنها هذا الاسم، فإنه يمنع؛ لأن هذه التسمية تكون مطابقة تمامًا لأسماء الله سبحانه وتعالى؛ فإن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف؛ لدلالتها على المعنى الذي تضمنه الاسم.

2- كيف نعلم أن الله هو السميع المجيب القريب ثم نجعل له ندا في العبادة بأن نضرع ونلجأ إلى غيره تعالى من شمس أو قمر أو نبي أو ملك أو ولي بقربة من القرب مثل: صلاة أو استغاثة به في شدة أو مكروه أو استعانة به في جلب مصلحة، أو دعاء ميت أو غائب لتفريج كربة أو تحقيق مطلوب، أو نحو ذلك مما هو من اختصاص الله سبحانه - فكل هذا وأمثاله عبادة لغير الله ، واتخاذ لشريك مع الله.

وللأسف نجده كثيرا؛ كالطواف بالسيدة زينب والحسين وغيرهما من الأولياء الصالحين الذين ترتكب عند قبورهم الكثير من مظاهر الشرك، اعتقاداً بأنهم يستطيعون جلب النفع ودفع الضر.

3- وإما أن يجعل لله ندا في التشريع، بأن يتخذ مشرِّعا له سوى الله، أو شريكا لله في التشريع، يرتضي حكمه ويدين به في التحليل والتحريم؛ عبادة وتقربا وقضاء وفصلا في الخصومات، أو يستحله وإن لم يره دينا، وفي هذا يقول تعالى في اليهود والنصارى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[75]، وأمثال هذا من الآيات والأحاديث التي جاءت في الرضا بحكم سوى حكم الله، أو الإعراض عن التحاكم إلى حكم الله والعدول عنه إلى التحاكم إلى قوانين وضعية، أو عادات قبلية، أو نحو ذلك.

[75] [التوبة: 31]

ولكن لننتبه!

الحكم بالتكفير والتفسيق ليس إلينا، بل هو إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهو من الأحكام الشرعية التي مردها إلى الكتاب والسنة، فيجب التثبت فيه غاية التثبت، فلا يكفر ولا يفسق إلا من دل الكتاب والسنة على كفره أو فسقه .

ولابد من التفريق بين الحكم على الفعل بأنه كفر، وبين الحكم على الفاعل بأنه كافر، فالحكم على الفعل الظاهر بأنه كفر متعلق ببيان الحكم الشرعي مطلقاً، كأن نقول أن السجود لقبر كفر، لكن ليس كل من سجد لغير الله كافرا؛ فلابد من النظر إلى حال الفاعل فقد يكون ارتكب هذا الفعل وهو جاهل لا يعلم الحكم أو هو مجبر ومكره على هذا الفعل، أو يكون متأولا: يعني أن تكون عنده بعض الشبه التي يتمسك بها ويظنها أدلة حقيقية، أو لم يستطع فهم الحجة الشرعية على وجهها، فالتكفير لا يكون إلا بتحقق تعمد المخالفة وارتفاع الجهالة.

ولذلك فلا يحق لنا تكفير أحد أبدا، فهذا دور العلماء والأئمة وذلك بضوابط وضعها الشرع، فالحذر الحذر من هذا الأمر.

ننتقل إلى النوع الثاني من أنواع الشرك، ولننتبه له فقد يكون ظاهرا وقد يكون خفيا، ففي الحديث الذي رواه بن ماجه وحسنه الألباني: (خرج علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليْهِ وسلَّمَ ونحنُ نتذاكرُ المسيحَ الدجالَ فقال ألَا أُخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيحِ الدجالِ قال قلنا بلى فقال الشركُ الخفيُّ).

وقال صلى الله عليه وسلم: (الشِّركُ أخفى في أمَّتي من دَبيبِ النَّملِ علَى الصَّفا في اللَّيلةِ الظَّلماءِ)[76].

[76] صحيح الجامع

الشرك الأصغر:

هو ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر أو ورد في النصوص أنه شرك ولكن لم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

وهو قسمان:

1- شرك ظاهر: ويكون في الكلام، كالحلف بغير الله تعظيما له، وفي الأعمال كتعليق التميمة خشية الحسد (كمن يضع الخرزة الزرقاء والكف).

فمن الشرك الأصغر الحلف بغير الله كالحلف بالآباء والكعبة والأمانة وغيرها.

وهذا لا يسلم منه الكثير من الناس للأسف، رغم أنه تعظيم لغير الله حتى وإن لم يكن كتعظيم الله.

كم مرة سمعت أحدهم وهو يقول: وحياتك، ورحمة فلان، وحياة فلان، والنبي؟

كل هذا شرك أصغر، نعم شرك وشرك كلمة عظيمة حتى لو قلنا أنه شرك أصغر.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (لا تحلِفوا بآبائِكُم ، ولا بأمَّهاتِكُم ، ولا بالأَندادِ ، ولا تحلِفوا إلَّا باللَّهِ)[77]، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (مَنْ حلفَ بالأمانةِ فليسَ منَّا)[78]، وقال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (من حلفَ بغيرِ اللهِ فقد كفرَ أو أشركَ)[79]، وفي رواية " وأشرك "، وفي رِوايَةِ النَّسائيِّ مِن حَديثِ قُتَيْلةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وفيه: (أنَّ يَهوديًّا أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقالَ: إنَّكُم تُندِّدُون، وإنَّكُم تُشركِون، تَقولونَ: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ، وتَقولونَ: والكَعْبةِ، فأَمرَهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا أرادُوا أنْ يَحلِفوا أنْ يقولوا: ورَبِّ الكعبةِ، ويقولوا: ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ).

[77] رواه النسائي
[78] رواه أبو داود
[79] رواه أبو داود

أيضا من الشرك الأصغر قول : ما شاء الله وشئت.

قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للذي قال له ذلك : (أجعلتَني للهِ ندًّا؟ ما شاء اللهُ وحدَه)[80].

ومنه قول: لولا الله وأنت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا داخل على الله وعليك ونحو ذلك.

قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (لا تقولوا ما شاء اللهُ وشاء فلانٌ، ولكن قولوا ما شاء اللهُ ثم شاء فلانٌ)[81].

قال أهل العلم : ويجوز لولا الله ثم فلان ، ولا يجوز لولا الله وفلان.

فما الفرق بين الواو وثم هنا ؟

العطف بالواو يقتضي المقارنة والتسوية فيكون من قال: ما شاء الله وشئت، قارناً مشيئة العبد بمشيئة الله مسوياً بها بخلاف العطف بثم المقتضية للتبعية، فمن قال: ما شاء الله ثم شئت، فقد أقر بأن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى لا تكون إلا بعدها كما قال تعالى: {وَمَا تشاءون إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ}[82] وكذلك البقية. إذا عندما أقول ما شاء الله وشئت أكون قد ساويت بين العبد وبين الرب، لكن عندما أقول ما شاء الله ثم شئت فأنا مقر بأن مشيئة الله هي الأصل ومشيئة العبد لا تكون إلا بعد مشيئة الله سبحانه وتعالى.

ومن الشرك الأصغر وضع كف أو خرزة زرقاء لدفع العين والحسد.

فظن العبد أن هذه الأشياء من الدين شرك أصغر، كظنه بأن الكف أو الخميسة عددها عدد آيات سورة الفلق هذا شرك أصغر؛ لأنه يظن بأن هذه الأمور من الدين وهي ليست من الدين، وأما إذا ظن واعتقد أن هذه الأمور في حد ذاتها سبب في نفعه وضره فهذا شرك أكبر.

---

[80] رواه أحمد
[81] رواه أبو داود
[82] [الإنسان: 30]

لم يخبرنا الله ولا رسوله بأن هذه الأشياء فيها نفع أو ضرر، وإنما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن وبعض الرقى الشرعية التي تنفعنا وتحمينا من العين والحسد فلماذا نستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

لماذا نوقع أنفسنا في الشرك الأصغر ولا يحصل لنا ما نرجوه من دفع العين، وعندنا البديل الشرعي الذي يحصل به مقصودنا ونفوز أيضا بثواب اتباع أوامر الله ورسوله؟

أيضا من الشرك الأصغر ما يُعرف بالأبراج وحظك اليوم وقراءة الفنجان والودع وغيرها من أمور الكهانة.

فلا يعلم الغيب إلا الله؛ كما قال -سبحانه وتعالى-: {قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ}[83]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[84].

فهل تعرف أن من أتى هؤلاء لمجرد السؤال دون أن يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين ليلة؟

فعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (مَن أتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عن شيءٍ، لَمْ تُقْبَلْ له صَلاةٌ أرْبَعِينَ لَيْلَةً)[85]، أما إن صدقه فقد كفر بما أنزل على محمد؛ قال صلى الله عليه وسلم: (من أتى كاهنًا، أو عرافًا، فصدقه فيما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد)[86]، وأما من أتاه، وصدقه، مع اعتقاده أنه لا يعلم الغيب، وأنه يأخذ أخباره من الجنّ الذين يسترقون السمع، أو من القرين المصاحب للإنسان، فبعض العلماء قال: إنه يكفر كفرًا مخرجًا من الملة، والبعض الآخر قال: كفرًا دون كفر، وهو كبيرة من الكبائر.

[83] [النمل: 65]
[84] [لقمان: 34]
[85] رواه مسلم
[86] رواه أحمد

والقسم الثاني من أنواع الشرك الأصغر

2- **شرك خفي:** ويكون في النية، وهو الرياء كمن يعمل البر والخير ويريد أن يمدحه الناس.

ومن أمثلة الشرك الأصغر الرياء الداخل في تحسين العمل المراد به الله تعالى .

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ)، فسئل عنه فقال: (الرياء)[87]. ثم فسره بقوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (يقومُ الرجلُ فيصلي فيُزيِّنُ صلاتَه لما يرى من نَظَرِ الناسِ إليه)[88].

ذلك الشخص الذي حسَّنت عبادتك من أجله قد جعلته لله شريكا، والله غني عن هذه العبادة التي ما أخلصتها له، ولذلك لن يقبل أي عمل غاب عنه الإخلاص الكامل لله. فهل يمكن لعاقل أن يتعب في عمل وهو يعرف أنه لن يحصل عليه ثوابا؟ يقول الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: (قال اللهُ تعالَى: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّركِ، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ تركتُهُ وشِركَهُ)[89].

نجد من إذا قام بأي عبادة أو عمل صالح سارع لنشره في وسائل التواصل، يخبر عن حجه أو عمرته وختمه كتاب الله وصيامه للنوافل؛ ليمدحه الناس ويجمع أكبر عدد من الإعجابات والتعليقات، من كان يعمل العمل لله فلن يهمه أن يمدحه الناس، أيضا نجد من يحج ليحصل على لقب الحاج، وهكذا كل عبادة يعملها الإنسان طلبا لمدح الناس، فالأمر كله يتعلق بالقلوب.

قد يقف المصلي في صلاة التراويح والمسجد ممتلىء بالمصلين فيبكي خشوعا لله مخلصا من قلبه لا يشعر بكل من حوله، ونجد آخر يصلي قيام الليل في البيت وهو يتمنى أن يراه الناس ويعرفوا أنه يصلي، فالأول نجى من الرياء رغم أنه بين الناس، والثاني وقع في الرياء رغم أنه وحده.

[87] صحيح الترغيب
[88] رواه ابن خزيمة
[89] رواه مسلم

عرفنا الشرك بنوعيه فما الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر؟ وكيف نميز بينهما؟

الشرك الأكبر مخرج من الملة صاحبه مخلد في نار جهنم، أما الشرك الأصغر فدون ذلك وإن كان على خطورة، فهو ينافي كمال الإيمان.

ومعلوم أن عقيدة أهل السنة والجماعة في مرتكب الكبيرة أنه في مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه. فلا نكفر الواقع في الشرك الأصغر .

ولكن كيف نميز بينهما؟

- عندما يأتيك نص صريح عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لك هذا شرك ولكنه شرك أصغر.

مثال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم : الشرك الأصغر ، قالوا : يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء)، إذا عندي هنا نص يخبرني بأن الرياء شرك أصغر.

- عندما تأتي كلمة شرك من غير (أل) التعريفة فإنه غالباً يقصد به الشرك الأصغر.

مثال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الرقى والتمائم والتولة شرك". فلم تُعرف كلمة شرك. قال العلماء: إذاً يُراد به الشرك الأصغر ولا يُراد به الشرك الأكبر .

وأختم الكلام عن الشرك الأصغر بهذا الحديث، فهو هدية وحبل نجاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن وقع في الشرك الخفي وهو لا يدري، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الشركُ فيكم أخفى من دبيبِ النملِ، وسأدلُك على شيءٍ إذا فعلتَه أذْهَبَ عنك صَغارُ الشركِ وكبارُه، تقولُ: اللهمَّ إني أعوذُ بك أنْ أُشرِكَ بك و أنا أعلمُ، و أستغفرُك لما لا أعلمُ)[90].

فاللهم لك الحمد على فضله الواسع.

[90] صحيح الجامع

توحيد الأسماء والصفات

عرفنا بفضل الله توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، والآن نعيش مع النوع الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات، وما أدراكم ما هو توحيد الأسماء والصفات!

إنه عالم من الجمال والروعة تعجز الكلمات عن وصفه، تخشع القلوب معه، وتخضع الجوارح له، وكل اسم من أسماء الله وصفاته يحتاج إلى كتاب وحده لنستشعر معناه وأثره في حياتنا وما يجب علينا نحوه، ولكننا سنمر سريعا على بعض هذه الأسماء والصفات لنعيش في هذا العالم.

إذا تأملنا أسماء الله الحسنى نجدها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد وتعظيم لله، وفيها صفات كمال لله، وأفعال حكمة ورحمة ومصلحة وعدل من الله، نعيش مع معانيها كل يوم من لحظة الاستيقاظ وحتى ننام:

- أستيقظ فأتذكر اسم الله المحيي فأردد حامدا لله هذه النعمة: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور".

- وأتذكر أني بدأت يوما جديدا على عملي شهيد وأن الله هو الإله الذي نتوجه إليه بالعبادات فأنوي أن يكون يومي كله لله.

- أبدأ بتأدية أعمالي ومسئولياتي وكلما استخدمت عضوا من أعضاء جسمي أو نعمة من نعم ربي تذكرت الرب الذي تولاني برحمته ورعايته وعنايته وفضله، فيزيد قلبي حبا وخضوعا وانقيادا له شكرا على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأتذكر اسم الله المستحق وحده للعبادة فأفرد عباداتي لله وأخلص قلبي لله.

- أقف في المطبخ أعد الطعام فأتذكر اسم الله الرزاق الكريم الذي أفاض عليَّ من فضله وإحسانه وخزائنه ملأى فأسأله من فضله وأكون سببا في رزق الفقراء وإطعامهم وأجعل لهم نصيبا من الطعام الذي أعده.

- قبل أن أتفوه بالكلمة أذكر أن الله هو السميع فلا أتلفظ إلا بما يرضيه، ولا أسب أبنائي ولا أحكي أسرار بيتي للجميع.

- وقبل أن أقوم بعمل أتذكر أنه البصير الذي يراني حتى في الخلوات، فأحرص على ألا يراني إلا على طاعة أو عمل مباح، ولا أجعله أهون الناظرين إليَّ.

- أوقن أنه العليم الخبير بعملي وبما يخفي صدري فأتقيه، العليم بحالي ولن يضيعني.

- إن أذنبت تذكرت اسم الله الغفور والتواب والعفو فاستغفرت وتبت فورا.

- يوفقني ربي لطاعة فأتذكر اسم الله الحميد والشكور وأحمده وأشكره على أن وفقني وأعانني على الطاعة.

- أنظر لنفسي ولأولادي ولكل ما حولي فأتذكر الله الخالق البارئ المصور.

- أقصد كل الأسباب متوكلا على الله الوكيل وأنا على ثقة ويقين أن الوكيل القادر المقتدر لن يخذلني أبدا.

- يظلمني أحدهم فأوقن أن الله الجبار سيجبرني، وهو الولي سيتولى أمري، والقهار الذي سيقهر من ظلمني، والنصير الذي سينصرني.

- أدعو الله وأنا موقن أن الله المجيب سيجيب دعائي.

- يبتليني ربي الحكيم فأثق في حكمة الله عز وجل وأعرف أن وراء هذا الابتلاء حكمة، وأتذكر أنه هو الصبور الذي يحب الصابرين فأصبر وأحتسب.

وهكذا في كل لحظة من يومنا لابد أن نجد ونستشعر اسما من أسماء الله الحسنى، وإذا أدركنا ذلك وعشنا معه سيكون لحياتنا طعم آخر، ولذة ما بعدها لذة، وسيظهر أثرها يقينا في قلوبنا وراحة لنفوسنا، وحُسْنا في أخلاقنا، ومراقبة لأعمالنا وأقوالنا، وسعادة في الدارين.

وحتى نعيش معها لابد أن نعرفها؛ فما هي الأسماء الحسنى؟

الأسماء الحسنى:

هي الأسماء التي أثبتها الله عز وجل لنفسه وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم وآمن بها جميع المؤمنين، قال الله عز وجل: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[91].

لماذا نصفها دائما بأنها حسنى؟

حسنى أي ليس فيها أدنى نقص، بل هي مشتملة على كل كمال ومدح، فعندما تسمع اسما منها استشعر كل معاني الكمال فيها.

اسم الرحمن مثلا نرى فيه كل معاني الكمال، فرحمته كاملة والرحمة الكاملة لا تكون إلا مع العدل والحكمة الكاملتين، تخيلوا رجلا قتل رجلا آخر متعمدا فرحمه القاضي وعفا عنه؟ أليس بذلك قد أضاع حق المقتول؟ إذا فرحمته هنا في غير محلها فهي رحمة ناقصة، لأنه ليس فيها عدل، فرحمته أضاعت حق المقتول، ولو أن أما تعطي أبناءها كل ما يحبون رحمة بهم سواء كان نافعا أو ضارا فرحمتها هنا ناقصة لأنها بدون حكمة، إذا لا تكون الرحمة كاملة بدون عدل وبدون حكمة وهذه هي رحمة الله سبحانه.

وهكذا فكل اسم من أسمائه يحمل كل معاني الكمال، فعندما تعيش مع أسماء الله الحسنى تستشعر معنى الكمال الإلهي، ولا تملك إلا أن تسبح بحمده، وتخضع لعظمته وقدرته وعزّته، ويرق قلبك حين تعرف مقدار رحمته ومغفرته وعفوه وودّه وجبره لعباده.

[91] [الأعراف : ١٨٠]

أما توحيد الأسماء والصفات فهو:

الإيمان بما وصف الله تعالى نفسه في كتابه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وإمرارها كما جاءت بلا تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

فهيا بنا نعيش مع كلمات هذا التعريف ونعرف معاني كلماته.

وهنا نسأل سؤالا:

لماذا قلنا في التعريف نؤمن و لم نقُل نصف أو نعتقد أو أي لفظ آخر؟

كلمة الإيمان: أعلى شأناً بكثير من أن نقول أو نصف أو نعتقد؛ لأنها تتضمن العلم والعمل، وسلامة الاعتقاد، وسلامة القول، وسلامة العمل المبني على ذلك الاعتقاد، فبذلك هي أعظم أثرا من الكلمات الأخرى، فلا يكفي مجرد الاعتقاد بالقلب وإنما نحتاج لترجمته لأعمال وأقوال بقلوبنا وجوارحنا، ولهذا كان اختيار لفظ الإيمان.

بكل: تشمل بكل ما ورد في الكتاب والسنة، ليس ببعض دون البعض .

كلمة وصف: هناك أوصاف أثبتها الله عز وجل لنفسه مثل العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر، وهناك صفات نفاها الله عز وجل عن نفسه مثل الموت والنوم والإعياء والتعب والجهل والغفلة. فنثبت لله ما أثبته لنفسه وننفي عنه ما نفاه عن نفسه، ونثبت ما أثبته له الرسول صلى الله عليه وسلم وننفي ما نفاه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم عبارة: "وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم" تبين مصدر التلقي عند أهل السنة وأنه الكتاب والسنة، أما مصدر التلقي عند أهل البدع فهو العقول.

وكما عرفنا فإن أدلة الوحي الصحيح لا يمكن أن تتعارض مع العقل الصحيح، إذاً قضية التلقي هي من أهم القضايا في هذا الباب .

من أين نتلقى العقيدة الصحيحة؟ من أين نتلقى حقائق الإيمان؟

من الوحي، من الكتاب، والسنة.

فاحذر أن يجرك عقلك بعيدا عن الصراط المستقيم وحافظ على نقاء عقيدتك بنقاء مصدرها.

والأصل لتَصِف شيئا :

1- إما إنك رأيت شبيهاً للشيء.

2- أو إنك رأيت الشيء نفسه.

فكيف لنا أن نصف الملك جل وعلا ولم نره بأعيننا، ولا يوجد له شبيه ولا مثيل؟

نسأل الله رؤيته في الجنة فهي أعظم نعيم أهل الجنة، فاللهم اجعلنا منهم وارزقنا لذة النظر لوجهك الكريم.

إذا هناك ضوابط لا بد أن نراعيها في الإيمان بأسماء الله وصفاته، يقول تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[92]، فأهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل.

وفي نفس الوقت ينفون ما نفاه الله عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

فما معنى من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل؟

هذه الشروط وضعت لأن كل ما يتعلق بالله عظيم له قدسية خاصة ولا يمكن أن يدركه العقل ولذلك نتوقف فيها على ما أخبرنا الله العظيم الجليل عن نفسه.

[92] [الشورى: 11]

فما معناها؟

"من غير تحريف": التحريف معناه العام التغيير، أي تغيير ألفاظ الأسماء والصفات أو تغيير معانيها . إما أن أغير اللفظ أو أغير المعنى.

نضرب مثالا:

يقول الله سبحانه : {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}[93]، نحن نقرؤها كما جاءت في القرآن (اللَّهُ) برفع لفظ الجلالة، لكن بعض المبتدعة لينفوا صفة الكلام عن الله يقومون بِنَصْبِ لَفْظِ الجلالةِ ليكون الكلام من موسى عليه السلام، رغم أن صفة الكلام ثابتة لله عز وجل وإذا كانوا قد حرفوا الآية السابقة فلن يستطيعوا تحريف قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}[94].

تخيلوا حين نسمع الله حين يكلمنا، يا ترى ماذا سيكون حالنا وقتها؟

يقول صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلِّمُه اللهُ يومَ القيامةِ، ليس بينه وبينه تَرجمانُ ، فينظرُ أيْمنَ منه ، فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظرُ أشأَمَ منه ، فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظرُ بين يدَيه ، فلا يرى إلا النَّارَ تِلقاءَ وجهِه ، فاتَّقوا النَّارَ ، ولو بشِقِّ تمرةٍ ، ولو بكلمةٍ طيِّبةٍ)[95].

فماذا أعددت من عمل لهذا اللقاء وماذا عملت لتتقي النار؟ هل أعددت إجابات لأسئلة هذا المشهد؟ هل اتقيت النار بشق تمرة تصدقت بها على فقير أو مسكين؟ أو بكلمة طيبة عُرفت بها بين الناس؟ مازال أمامك الوقت لتستعد لهذا اليوم، فابدأ من الآن وتدارك ما فات.

أما مثال التحريف في المعنى: فعندما نقرأ قوله تعالى : {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}[96]، فإننا نثبت صفة اليد لله تعالى لكن البعض يحرفون معنى اليد إلى القوة أو النعمة وهذا لا يجوز ويفسد المعنى؛ لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أن له يدان: فقال تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}[97]، فإذا فسرت

[93] [النساء: 164]
[94] [الأعراف: 143]
[95] رواه البخاري
[96] [الفتح: 10]
[97] [ص: 75]

اليد بالنعمة سيكون المعنى: بنعميَّ، وهذا يفيد حصر النعمة بنعمتين والله له نعم كثيرة، وإذا فسرتها بالقوة؛ فإن لله قوتان فقط، فيفسد المعنى.

وكتحريف معنى الاستواء إلى الاستيلاء؛ يقول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}[98]، فنؤمن بأن الله تعالى قد استوى على العرش، استواء حقيقيا يليق بجلاله سبحانه، ليس كاستواء البشر، ولكن كيفية الاستواء مجهولة بالنسبة لنا؛ ولذا فإننا نفوض كيفيته إلى الله. لكن بعض الفرق الضالة نفت الاستواء وفسرته بمعنى الاستيلاء، إذا هم يثبتون اللفظ ويحرفون المعنى الحقيقي.

والذي حرف كأنه يقول لله عز وجل إن الصفة التي وصفت بها نفسك ووصفك بها رسولك صلى الله عليه وسلم لا تجوز بك وأنا ألغيها وآتي بما يليق بك، فهل يقول بهذا عاقل؟ هل رأيتم إلى أين قد يذهب العقل بالإنسان عندما لا يأخذ نصوص الوحي كما جاءت؟

"ولا تعطيل": والتعطيل هو إنكار ما يجب لله تعالى من الأسماء والصفات.

فالمعطلة ينفون ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله، فينفون استواءه على عرشه، وينفون حقيقة اليدين. وهو ينقسم إلى: تعطيل كلى - وتعطيل جزئي.

التعطيل الكلي: هو إنكار جميع الأسماء والصفات.

التعطيل الجزئي: فقد يثبتون الأسماء وينفون الصفات.

فيقولون أن الله سميع بلا سمع وبصير بلا بصر وهكذا، وهذا هو قول المعتزلة وهي فرقة من الفرق الضالة. وهذا كلام ينكره كل عاقل، ولكن الشيطان زين لهم ما يقولون حين ابتعدوا عن نصوص الشرع فوقعوا في الضلال والجهالة.

ونجد من يثبت الأسماء وينكر الصفات إلا سبعة فقط وهي: (السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام)، وهذا ما يفعله الأشاعرة.

[98] [طه:5]

فكلاهما (سواء المعتزلة أو الأشاعرة) من المعطلة، وكلاهما يجب الحذر من السير على خطاهم.

"ومن غير تكييف": هو حكاية كيفية الصفة، أو نستطيع القول من غير بحث عن كيفية صفات الرب. لا أسأل عن الكيفية؛ فلا أسأل كيف يسمع الله سبحانه وتعالى؟ أو كيف هي صفة يده؟

هذا كله لن يستطيع أن يدركه العقل.

"ولا تمثيل": هو إثبات المثيل للشيء، أي إثبات المماثلة لله عز وجل فيما يختص به سبحانه من الحقوق والصفات. يعني أقول مثلا أن يد الله مثل يد المخلوقين تعالى الله عن ذلك.

إذا ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟

الفرق بينهما أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا، أو يسأل عنها بكيف.

وأما التمثيل: فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين.

والتمثيل والتكييف كلاهما باطل لكن الفرق أن نفي التكييف المقصود به نفي علمنا نحن به لا نفيه مطلقاً هناك كيفية لصفات الله لكن نحن لا نعرفها، نحن نعرف مثلا أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ونثبت ذلك، ولكن لا نعرف كيف ينزل فننفي الكيفية.

أما نفي التمثيل فهو نفي مطلق، فليس هناك مثيل لله ولا لصفاته عز وجل.

كيف يدرك عقلنا القاصر عظمة خالقه؟ بل كيف نظن للحظة أن صفات الخالق تماثل صفات المخلوقين؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، إنه الرب العظيم المتعال (ليس كمثله شيء).

وقبل أن نستأنف رحلتنا مع الأسماء والصفات نريد أن نوضح معالمها أكثر، ونعرف الفرق بين أسماء الله وصفاته.

الفرق بين الاسم والصفة:

هناك فرق بين الاسم والصفة:

فإذا قلت: مثلاً السميع، فالسميع اسم والصفة السمع.

وإذا قلت: البصير، فالبصير اسم والصفة البصر.

وإذا قلت: العلي، فالعلي اسم والعلو صفة.

وإذا قلت: الحكيم، فالحكيم اسم والحكمة صفة. وهكذا

فالاسم ما تسمى الله تعالى به، والصفة ما اتصف الله به.

وهناك صفات ليست صفات معاني؛ مثل اليد، فلله تعالى يدان اثنتان، قال الله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}[99]، والعين فلله تعالى عينان، كما قال تعالى: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}[100]، وما أشبه ذلك مما جاء في الكتاب والسنة.

فما هو الفرق بين الاسم والصفة؟

إذا قلنا أن من أسماء الله الرحمن مثلا فهذا معناه أننا عندما نسمع أو نقول اسم الرحمن فورا يتجه ذهننا أننا نتحدث عن ذات الله سبحانه وتعالى، وفي نفس الوقت ندرك أنه متصف بالرحمة.

وبالتالي فإن الفرق الأول بين الاسم والصفة: أن الاسم يدل على ذات الله مع الصفة المشتقة منه، أما الصفات فتدل على الصفة فقط.

---

[99] [المائدة: 64]
[100] [طه: 39]

فلو قلنا أن من صفات الله الثابتة أنه يضحك، فهل يجوز أن نقول أن من أسماء الله الضاحك؟

بالطبع لا يمكن أن نسمي الله سبحانه وتعالى بهذا الاسم ولا يجوز ذلك أبدا، فأسماء الله كلها توقيفية.

فما معنى توقيفية؟

توقيفية: أي نتوقف على ما جاء به الشرع فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسنة، فلا يزاد فيها ولا ينقص؛ لأن العقل لا يمكنه إدراك ما يستحقه تعالى من الأسماء، فوجب الوقوف في ذلك على النص.

ولذلك فباب الأسماء أضيق الأبواب، فلا يجوز أن نسمي الله سبحانه وتعالى بغير الأسماء التي ذكرها لنا، وورد بها النص الصريح الصحيح، ولا يجوز أن تشتق أسماء الله من صفاته، أو من أفعاله، فمثلاً من صفاته الغضب، هل نستطيع أن نقول: نشتق من هذه الصفة اسم الغاضب أو الغضوب؟ لا.

من أفعاله سبحانه أنه يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، هل نستطيع أن تشتق من الفعل اسم المكور؟ لا.

يقول الله تعالى: {جَاءَ رَبُّكَ}[101] لا نستطيع أن تقول: من أسمائه الجائي.

وإذا قلت: من أفعاله أنه يمكر بالكافرين، {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ}[102]، فلا نستطيع أن تشتق منها اسمًا له الماكر.

ومن أفعاله تعالى أنه يخادع أعداءه المنافقين، {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}[103]، فلا تستطيع أن تشتق اسمًا له وتقول: المخادع.

---

[101] [الفجر: 22]
[102] [الأنفال: 30]
[103] [النساء: 142]

وهو يكيد لأعدائه، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16)}[104]، ولكن لا يجوز لك أن تشتق من هذا الفعل اسم الكائد.

إذا الفرق الثاني بين الأسماء والصفات هو: أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء؛ فالأسماء توقيفية ولا يمكن أن نشتقها من الصفات، أما صفات الله فيمكن أن تشتق من الأسماء الحسنى كما عرفنا.

كذلك هناك صفات فعلية تؤخذ من بعض الأفعال الواردة في الكتاب والسنة مثل: "الرحمن على العرش استوى" الفعل استوى يدل على صفة فعلية اسمها صفة (الاستواء) ، " ينزل ربنا " يدل على صفة (النزول) الفعل (ينزل) يدل على فعل (النزول)، وهكذا.

لكن يجوز أن نخبر عن الله تعالى بما لم يرد في الكتاب والسنة إذا كان الخبر صحيحا ويجوز على الله سبحانه وتعالى؛ كأن يقال: إن الله سبحانه وتعالى موجود أو واجب الوجود مثلاً، أو إن الله سبحانه وتعالى قديم أزلي، هذه العبارات نقرؤها ونسمعها كثيرا في كتب العقيدة رغم أنها لم ترد في السنة ولم ترد في القرآن، لكن يصح إطلاقها على الله عز وجل من باب الخبر، وهي ليست اسما ولا صفة وإنما من باب الإخبار عن الله سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم رحمه الله في بدائع الفوائد: "ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته؛ كالشيء، والموجود، والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا "

إذا باب الصفات أوسع من باب الأسماء وباب الأخبار أوسع من باب الصفات.

والآن هيا بنا نعرف أقسام الصفات ونعيش مع بعض صفات الله، وبالطبع كلها صفات تدل على الكمال والعظمة والجلال.

يمكننا تقسيم صفات الله عز وجل إلى قسمين أو نوعين:

[104] [سورة الطارق]

الأول: هو الصفات السلبية أو التنزيهية: وتدل على سلب النقص منه سبحانه وتعالى.

لو قلنا مثلا: إن من صفاته سبحانه البقاء فهذا معناه سلب الفناء والعدم عنه تعالى، ولو قلنا أنه سبحانه وتعالى حي إذا نسلب منه صفة الموت. إذا هذه الصفات صفات تنزيهية أو سلبية، أي صفات ننزه الله عنها.

ولو تأملنا صفات أخرى مثل العظمة والرحمة والمغفرة، نجدها تدل على صفات كمال في حق الله سبحانه وتعالى. إذا على العكس من الصفات السلبية النوع الثاني من الصفات:

صفات وجودية أو ثبوتية: وهي تدل على كمال موجود في الحق سبحانه وتعالى، وهي أكثر ورودا في القرآن والسنة من الصفات السلبية.

وهي تنقسم إلى قسمين نريد أن نستنتجهما معا:

لو قلنا أن مثلا أن الله سبحانه وتعالى سميع فهل يمكن أن يتصف بضد صفة السمع، أو يسمع أحيانا وأحيانا لا؟

إذا هناك صفات لا تنفك عن الله عز وجل بحال من الأحوال، وتدل على الكمال والعظمة فيتصف بها، ويستحيل أن يتصف بضدها؛ لأن ضدها نقص وهو لم يزل ولا يزال متصفا بها مثل أن الله عز وجل سميع، وعليم، وقدير، وخالق.

وهذه الصفات هي النوع الأول من الصفات الوجودية الثبوتية وهي: الصفات الذاتية.

فلنحذر كل الحذر فالله يسمعنا في كل لحظة، يرانا في كل لحظة، يعلم ما في قلوبنا في كل لحظة، شهيد على أعمالنا وما في صدورنا في كل لحظة، ولنطمئن لأن الله دائما يحفظنا دائما، يربينا بنعمه دائما، يتودد لعباده المؤمنين رحيم بهم.

ونحن عَلِمنا أن الله عز وجل سميع وإن لم يخبر أنه سميع نحن نعلم أنه سميع، كذلك أنه بصير والحي والودود والغفور والعليم والحليم وأنه ودود غفور، فهذه تُسمى صفات ذاتية معنوية.

لكن هناك صفات لا نعرفها إلا لأنه سبحانه وتعالى أخبر بها؛ مثلاً نحن لا نعلم أن الله عز وجل له ساق إلا عندما أخبرنا أن له ساق، قال تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}[105]، ولا نعلم أن الله عز وجل له وجه إلا لأنه أخبر أنه له وجه، قال تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}[106]، ولا نعلم أن الله عز وجل له يد إلا لأنه أخبر أن له يد، قال تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}[107]، ولا نعلم أن الله عز وجل له عين إلا عندما أخبر أن له عين، قال تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}[108]. وبالتالي هذه تُسمى صفات ذاتية خبرية.

إذا النوع الأول من الصفات صفات ذاتية وهي إما معنوية أو خبرية.

والنوع الثانية من الصفات هو الصفات الفعلية:

وهي التي تتعلق بمشيئة الله، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وتتجدد حسب المشيئة.

كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والغضب، والفرح، والضحك، وتسمى (الصفات الاختيارية).

فاستشعر هذه المعاني واحرص على أن يكون لك نصيب من هذه الأفعال؛ بأن يفرح بتوبتك، ويضحك لفعل تفعله يرضيه وجاء في السنة أنه سبب لضحكه، واحذر من أن تفعل شيئا يكون سببا في غضبه.

فمثلا تذكر دوما أن ربك من صفاته الفعلية أنه يفرح لتوبتك ورجوعك إليه، وهو ليس كفرح المخلوقين وإنما فرحا يليق بجلاله وعظمته، عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا،

[105] [القلم: ٤٢]
[106] [الرحمن: ٢٧]
[107] [المائدة: ٦٤]
[108] [الطور : ٤٨]

قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ)[109].

أيضا من صفات الله الفعلية: صفة النزول في ثلث الليل الآخر، يشاء الله أن ينزل في ثلث الليل الآخر ويشاء أن لا ينزل في غير وقت الثلث، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَنْزِلُ رَبُّنا تَبارَكَ وتَعالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فيَقولُ: مَن يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له، مَن يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَن يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له)[110]، فأين تكون عند نزول الله تعالى ليستجيب دعائك إذا دعيت، ليعطيك إذا سألته من فضله، ويغفر لك إذا استغفرت؟

يا من أذنبت ربك ينزل في ثلث الليل ليغفر لك إذا استغفرت، يا من لديه عند الله حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أين أنت حين ينزل الله تعالى في ثلث الليل الأخير ليعطي من يسأل؟ يا من يرجو أن يستجيب الله دعائه، ويقضي حاجته، ويفرج كربه، ويشفي مريضه، وينصره على من ظلمه، ويا من ترجو أن يرزقها الزوج الصالح أو الذرية الصالحة، أين أنت في ثلث الليل الأخير؟ هل تركت كل هذا وفضلت الفراش الوثير؟ أم أنساك الشيطان ونفسك الأمارة بالسوء هذا الفضل العظيم وكنت أمام وسائل التواصل أو الهاتف أو التلفاز؟ أم كنت من الرابحين الذين لا يفوتون هذه الفرصة العظيمة {تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}[111]، كل ما تحتاج إليه نصف ساعة قبل الفجر تكفيك لصلاة ركعتين والوتر والدعاء والاستغفار بالاسحار، نصف ساعة تكون قضاء لحاجتك بإذن الله، وزادا لروحك، ونورا في وجهك، وراحة في قلبك، نصف ساعة لا تفرط فيها أبدا. نم مبكرا، نم بعد الفجر، نم أثناء النهار، المهم أن تجد وسيلة تعينك على الاستيقاظ ولو قليلا في ثلث الليل الأخير.

عرفنا بعض الأمثلة على الصفات الذاتية والفعلية، فهل صفة الكلام ذاتية أم فعلية؟

---

[109] رواه مسلم
[110] متفق عليه
[111] [السجدة : ١٦]

صفة الكلام من الصفات الذاتية والفعلية معا؛ فهي ذاتية باعتبار أصل الصفة؛ لأن الله لم يزل ولا يزال متكلماً، وفعلية باعتبار أن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه، فهو يتكلم متى شاء سبحانه، وكلام الله سبحانه وتعالى كلام حقيقي يليق بجلاله، يليق بعظمته، يليق بكماله سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا}[112] فالتأكيد بالمصدر دليل أن الفعل حقيقة وليس مجازا، وكذلك قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}[113] هنا تكلم بكلام حقيقي سبحانه وتعالى، ومتى كلم الله عز وجل موسى؟ لما جاء، إذا يتكلم الله متى شاء.

هل تشوقت أن يكلمك الله كما كلم موسى عليه السلام؟ بين أيدينا كلام الله فماذا فعلنا به؟ هل لنا ورد من كلام الله نروي به ظمأ قلوبنا كل يوم؟ هل حرصنا على أن يكون في جوفنا شيئا من كلام الله؟ هل نشتاق لكلام ربنا؟ هذا هو المنطقي ولكن الواقع يقول كما قال القرآن: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}[114]، آية مؤلمة تعبر عن واقع كثير من المسلمين اليوم، تعبر عن هجرهم لكلام الله تلاوة وسماعا وحفظا وفهما وتطبيقا.

يجب أن نحرص على أن يكون لنا ورد يومي وإن قل، فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ، مهما كانت ظروفك لا تتركه، هل تترك شرب الماء يوما كاملا مهما كان انشغالُك؟

أتعرف معنى الوِرد؟ الورد بمعنى: القوم يردون الماء، فسُمِّي العطاش وردًا؛ لطلبهم ورود الماء، تماما مثل ورد القرآن سُمِّي وردًا لترتوي من القرآن.

ابدأ بمصحفك النهار ولا تدع وردًا يُؤخَّر

اقرأ ورتل وارتشف من آيِهِ الشَّهد المطهَّر

ابدأ فكل صعابها تغدو مع القرآن أيسر

[112] [النساء: 164]
[113] [الأعراف: 143]
[114] [الفرقان : ٣٠]

ننتقل لقاعدة أخرى قد تغيب عن بعض الناس، ووراءها خير وفضل عظيم، قد تكون سببا في دخولك الجنة لو طبقناها.

فهل تعرف أن تعلمك لأسماء الله الحسنى قد يكون سببا في دخولك الجنة؟ لا تستغرب ولكن قبل أن نعرف كيف يكون ذلك نريد أن نجيب على هذا السؤال.

ما هو عدد الأسماء الحسنى؟

لا يعلم عدد أسماء الله إلا هو سبحانه وتعالى، والدليل على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند أحمد وغيره عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما أصاب أحدًا قط همٌّ و لا حزنٌ ، فقال : اللهمَّ إني عبدُك ، و ابنُ عبدِك ، و ابنُ أَمَتِك ، ناصيتي بيدِك ، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك ، أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك ، أو علَّمتَه أحدًا من خلقِك ، أو أنزلتَه في كتابِك ، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك ، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قلبي، و نورَ صدري ، و جلاءَ حزني ، و ذَهابَ همِّي ، إلا أذهبَ اللّهُ همَّهُ و حزنَه ، و أبدلَه مكانَه فرجًا)[115]، هنا قال: أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك فما استأثر الله عز وجل به في علم الغيب عنده لا يعلمه لا ملك ولا نبي ولم ينزل في كتاب، إذا عدد أسماء الله عز وجل لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

فما معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام حديث أبي هريرة : (لِلَّهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسمًا، مِائَةٌ إلَّا واحِدًا، لا يَحْفَظُها أحَدٌ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وهو وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ)[116]؟

الحديث لا يعني حصر أسماء الله في 99 اسما، ولكنه يعلمنا فضل تعلم التسعة وتسعين اسما؛ مثلا لو قلت عندي كتابين لو قرأتهما استفدت كثيرا، فهذا لا يعني أن عندي كتابين فقط، وإنما معناه أهمية هذين الكتابين، فكذلك - ولله المثل الأعلى - هناك 99 اسما من أحصاها دخل الجنة ولكن هذا لا يعني أنها هي فقط أسماء الله.

[115] رواه أحمد
[116] رواه البخاري

99 اسما من أحصاها دخل الجنة، من يريد الجنة منكم؟ جاءتكم الفرصة ليست لجنة الآخرة فقط بل جنة الدنيا، جنة القلوب وراحتها وسعادتها، كل ذلك عندما نعرف معنى أحصاها ونعيش معناها.

فما معنى أحصاها؟

أحصاها لها أربعة معانٍ ذكرها العلماء وهي: حفظها، معرفة معناها، العمل بمقتضاها، دعاء الله بها.

1- حفظها: بعض العلماء قال أن أحصاها بمعنى حفظها، لكن لا شك أن من حفظ الألفاظ ولم يقم بحقها في العبادة لم يكن ذلك هو الإحصاء المقتضي لدخول الجنة، فمن يتغنى الأسماء الحسنى هل أحصوا الأسماء الحسنى؟ بالطبع لا .

كم من إنسان يحفظها ولكن لم يقم بحق الله عز وجل فيها، فلذلك لم يقل من حفظها وإنما قال من أحصاها.

2- معرفة معناها: فلابد أن تعرف المعنى أولاً وتستحضره في قلبك فيتأثر وينصبغ به؛ فإذا انصبغ القلب بمعانيها ظهر على الجوارح أثر هذه الأسماء، وظهر على السلوك، وظهر في منطقك، وفي كلامك، فبدون معرفة معناها ومدلولاتها لن نعرف أن نعمل بمقتضاها، فما معنى العمل بمقتضاها؟

3- العمل بمقتضاها: إذا علمت أن الله هو الرزاق، ماذا تفعل؟ يقول تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ}[117]، إذا عرفت أن الله هو الرزاق ستطلب منه الرزق وحده ولن تخاف أن يمنعك أحد الرزق الذي رزقك الله، أنت آمنت أن الله هو الرزاق إذاً ليست الوظيفة هي التي ترزقك، وليس المدير هو الذي يرزقك، وليس صاحب العمل هو الذي يرزقك، إذًا لن تطلب الرزق

[117] [العنكبوت: 17]

من الناس، ولن تداهن الخلق؛ لأنك تعلم أن الله هو الرزاق سبحانه وتعالى، ولن تطلب هذا الرزق بالحرام، إنما تطلبه بما أحل الله عز وجل، وتتجمل في الطلب وتطلب طلباً جميلاً. وهكذا.

4- دعاء الله بها: كما قال عزّ وجلّ : {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}[118]، فإذا علمت أن الله رحيم طلبت منه الرحمة، وإذا علمت أن الله الرزاق طلبت منه الرزق وهكذا.

ذلك الدعاء ليس فقط سبيلك لإحصاء الأسماء الحسنى والوصول إلى جنة عرضها السماوات والأرض، وإنما أيضا هو سبيلك لجنة الدنيا وراحة القلب؛ يا ترى هل شعرت مرة بلذة الدعاء؟ بلذة اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى؟ شعرت بطعم "إلهي ورجائي وخالقي ورازقي وربي ومعيني أنت القوي ونحن الضعفاء إليك، أنت العزيز ونحن الأذلاء إليك، عبادك سوانا كثير وليس لنا في الوجود رب سواك فندعوه ولا إله غيرك فنرجوه "؟ عرفت أن الله الوكيل فذقت حلاوة التوكل على الله، "اللهم إني توكلت عليك وفوضت إليك جميع أمري فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك يا كريم"؟ شعرت بمعنى أسماء الله الحسنى وأنت تدعو؟ يا سميع أنت تسمع دعائي، ويا بصير أنت ترى حالي، ويا جبار يا عدل رد لي حقي وانصرني على من ظلمني واجبر كسري، ويا رحمن يا رحيم ارحمني، ويا كريم يا رزاق ارزقني، ويا قدير أعني ويا تواب يا غفور تب علي واغفر لي؟ والله إنها للذة للقلوب وراحة لها.

إذًا عرفنا أن أسماء الله الحسنى ليست ٩٩ اسما فقط ولكن هل هناك أسماء منتشرة بين الناس يظنون أنها من أسماء الله الحسنى وهي ليست كذلك، أو لا بد من وجود قواعد نلتزم بها عند استخدامها، ونأخذ بعض الأمثلة:

[118] [الأعراف: 180]

ماذا عن الضار والخافض والمانع ؟ هل يجوز إطلاقها على الله سبحانه وتعالى؟

قال الله تعالى : {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[119] فهل من أسماء الله الضار؟

معنى الضار : الذي يقدّر الضر ويوصله إلى من شاء من خلقه، فالخير والشر من الله تعالى، كما قال سبحانه : {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[120]، إلا أنه ليس من الأدب نسبة الشر والضُر إلى الله، والله سبحانه هو الضار النافع، ولكن لم يثبت بدليل صحيح أن الضار من أسماء الله تعالى، وإنما ورد ذلك في الحديث المشهور الذي فيه تعداد الأسماء الحسنى، وهو حديث ضعيف رواه الترمذي، والمقرر عند أهل العلم كما رأينا أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، أي لا يثبت منها شيء إلا بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة .

فإذا لم يثبت الاسم، وكان معناه صحيحا فإنه يجوز الإخبار به عن الله تعالى، فيقال: الله هو الضار النافع، لأن باب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات، لكن لا يُعبد بهذا الاسم، فلا يقال: عبد الضار؛ لأنه لم يثبت اسما لله تعالى .

ولكن هنا ملاحظة مهمة:

من أسمائه تعالى وصفاته ما لا يطلق عليه إلا ومعه مقابله، لأنه إذا أطلق وحده يمكن أن يوهم بصفة نقص فلا نقول مثلا: (الضار) وحده، لكن نقول (الضار النافع) فهي معا اسم واحد.

فالله سبحانه يضر لينفع، ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لِعِباده، لشكرنا الله على ابتلائه، فليس لنا إلا الرضا بقضاء الله وقدره، وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر أسباب سعادة الإنسان. لا يظهر إيمانك إلا في الشِدّة، ولا ترقى عند الله إلا في الشِدّة، لذلك المؤمن يُوَطِّن نفسه على أن يُمتحَن، وقد سُئل الإمام الشافعي؛ أندعوا الله بالابتلاء أم بالتمكين؟ فقال: لن تُمكن قبل أن تُبتَلى، قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ

[119] [الأنعام:17]
[120] [الانبياء: 35]

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[121]، وروى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: (يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)، قال ابن تيمية رحمه الله: فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ولا يضر غيره.

ومع ذلك فقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء إذا حافظنا عليه بيقين لا يضرنا شيء، فقد روى الترمذي وأبو داود وابن ماجه عن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ فِي صَبَاحِ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءِ كُلِّ لَيْلَةٍ : بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ).

وأيضا (الخافض) وحده ليس من أسماء الله الحسنى وإنما نقول (الخافض الرافع)، فهو سبحانه الذي يخفض الجبارين، ويذل المتكبرين، ويرفع أولياءه وينصرهم على أعدائهم، يخفض من يشاء من عباده فيضع قدره ويُخمِل ذكره، ويرفع من يشاء فيعلي مكانه ويرفع شأنه، لا يعلو إلا من رفعه ولا يَتَّضع إلا من وضعه.

فهل تحب أن يرفع الله من قدرك؟ إذا اسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه مسلم: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين) وفي رواية الدارمي: (إن الله يرفع بهذا القرآن...)، فيرفع الله به من آمن به ومن قرأه وعمل بمقتضاه مخلصا، فيرفعهم في الدنيا بأن يحييهم حياة طيبة، وفي الآخرة بأن يجعلهم من أهل الدرجات العلا مع الذين أنعم عليهم.

«ويضع به» قدر «آخرين» وهم الذين لم يؤمنوا به، أو آمنوا ولكنهم أضاعوه وتركوا العمل بما فيه، فيجعلهم في الدنيا في شقاء وضنك من العيش، وفي الآخرة في أسفل سافلين.

[121] [آل عمران: 179]

فالقرار لك، هل تريد أن يرفعك الله؟ إذا عليك بكتابه تمسك به قولا وعملا وتلاوة وحفظا، واجعله أنيسك ورفيقك.

نسأل سؤالا آخر:

هل من أسماء الله تعالى المعطي المانع؟

لم يثبت المعطي المانع كاسم لله، إنما يجوز الإخبار بها عن الله أنه أعطى فلانا ومنع فلانا.

فاللهم أعطنا من فضلك الواسع يا ذا الجود والمنِّ والإحسان.

ننتقل إلى اسم آخر، اسم كثير منا يدعو الله به إذا شعر بالظلم والقهر، يدعو به الله ليأخذ حقه وينتقم ممن ظلمه، فيظن البعض أن من أسماء الله الحسنى المنتقم، ولكن (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنى ولكن أقول (ذو انتقام)؛ فهو لم يطلق في القرآن إلا مع متعلقه كقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ}[122]، أو بإضافة ذو إلى الصفة المشتق منها كقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}[123]. فاللهم انتقم من المجرمين إنك عزيز ذو انتقام.

نسأل سؤالا آخر: يقول الله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[124]، ويقول تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[125].

فهل يجوز أن نقول أن من صفات الله المكر أو الاستهزاء؟

صفة المكر قد تكون ممدوحة في مقام ومذمومة في مقام آخر؛ فالمكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف الله به على الإطلاق، وإنما يذكر مقيدا؛ فلا يجوز أن نقول: "إن الله ماكر"، وإنما نذكر هذه الصفة في مقام يكون مدحاً، مثل

[122] [السجدة: 22]
[123] [إبراهيم:47]
[124] [الأنفال: 30]
[125] [البقرة: 15]

قوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، وقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[126]، ومثل قوله تعالى: {فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ}[127].

إذا لا ننفي عنه هذه الصفة على سبيل الإطلاق، بل إنها في المقام الذي تكون مدحاً يوصف بها، وفي المقام الذي لا تكون فيه مدحاً لا يوصف بها.

ولا يسمى الله به فلا يقال: "إن من أسماء الله الماكر"، والمكر من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بمشيئة الله سبحانه.

وهنا نتذكر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن ماجه: (وامكُر لي ولا تَمكُر عليَّ)، دعاء جميل لو تدبرنا معناه، دعاء نحتاج إليه كثيرا لينصرنا الله على عدونا، يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: أنزِلْ مَكْرَك بمَن أراد بي شَرًّا وسوءًا، وارزُقْني الحيلةَ السَّليمةَ، والطَّريقةَ المُثْلى في دَفْعِ كَيْدِ عدوِّي، فأَسْلَمَ مِن كَيدِهم وشَرِّهم، "ولا تَمكُرْ عليَّ" أي: ولا تَهْدِ عدُوِّي إلى طريقِ دَفْعِه إيَّاي عن نفسِه.

ونفس الأمر نقول أن الله يستهزئ بالمستهزئين مقيدا.

وقد سمى الله نفسه بأسماء وسمى بها بعض خلقه، وسمى صفاته بأسماء وسمى ببعضها صفات خلقه، ولكن ليس المسمى كالمسمى، فسمى نفسه: حياً، عليماً، حليماً، رؤوفا، سميعا، بصيراً، عزيزا، ملكاً، مؤمناً، جباراً، متكبراً، وسمى بعض عباده بهذه الأسماء فقال: (يخرج الحي من الميت) ،(وبشروه بغلام عليم)، (فبشرناه بغلام حليم)، (بالمؤمنين رءوف رحيم)، (فجعلناه سميعا بصيرا)، (قالت امرأة العزيز)، (وكان وراءهم ملك)، (أفمن كان مؤمنا)، (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار)، ولكن معلوم أنه لا يماثل الحي الحي، ولا العليم العليم، وكذلك في باقي الأسماء.

[126] [النمل : ٥٠]
[127] [الأعراف : ٩٩]

أيضا سمى بعض صفاته عِلما وقوة، فقال تعالى: (أنزله بعلمه)، وقال: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين)، وأطلق هذه الصفات على خلقه فقال عن يعقوب عليه السلام: (وإنه لذو علم لما علمناه)، وقال: (ويزدكم قوة إلى قوتكم)، ومعلوم أنه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة.

فشتان بين صفات الله التي كلها كمال وصفات الإنسان بما فيها من نقص؛ سمع الإنسان الذي لا يسمع إلا ترددات معينة في حدود معينة ولا يستطيع أن يميز بين الأصوات إذا تداخلت وبين سمع الله الذي يسمع دبيب النمل ولا يعجزه سمع عن سمع. بصر الإنسان المحدود الذي لا يرى إلا الطيف المرئي أما الله البصير يرى النملة السوداء على الصخرة السوداء في الليل المظلم، يراك أينما كنت لا تستطيع أن تتواري عن بصره سبحانه. علم الإنسان قد يقع فيه الخطأ فيكون خلاف الواقع، فقد يتعلم الإنسان شيئاً يظنه صواباً وهو في الحقيقة خطأ ومخالف للواقع، وهو محدود مكتسب سبقه عدم وجهل، أما علم الله قام بذاته لم يسبقه جهل، وهو محيط بجميع المعلومات عالم الغيب والشهادة.

فيا أيها المؤمن صاحب العقيدة السليمة إذا تأملت صفات الله عز وجل، وتدبرتها جيدا، وعلمت كمالها، ثم نظرت إلى ما فيك وما في البشر حولك من نقص في صفاتهم لن تعول في قضاء حوائجك على أحد ولا حتى على نفسك، وسيتعلم وقتها قلبك بل وكل جوارحك أن تكون ملكا لربك فقط، ووقتها ستعيش قولا وعملا بقول الله عز وجل: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[128].

ومن أسمائه تعالى ما هو مخصوص به سبحانه، لا يجوز إطلاقه على غيره، كالرزاق والمحي والمميت والقدوس والرحمن ومالك الملك وذي الجلال والإكرام .

من يرزق غير الله؟ من يحيي ويميت إلا الله؟ من له كل التقديس والتنزيه سوى الله؟ من يمكن أن يقال له مالك الملك وذو الجلال والإكرام عدا الله؟

[128] [الأنعام: 162]

ومن أسمائه ما يوصف به الله تعالى مطلقا، لكن يوصف به غيره مقيدا، كالرب مثلا نقول على صاحب العمل (رب العمل) لكن لا نقول (الرب) دون تقييده بكلمة العمل.

إذا الصفات ثلاثة أنواع:

الأول: صفات كمال، لا نقص فيه بوجه من الوجوه:

فهذه يوصف الله تعالى بها وصفاً مطلقاً ولا يقيد بشيء، مثال ذلك: العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة . . . إلخ .

الثاني: صفات نقص، لا كمال فيها:

فهذه لا يوصف الله تعالى بها أبداً، كالنوم، والعجز، والظلم، والخيانة . . إلخ .

الثالث: صفات يمكن أن تكون كمالاً ، ويمكن أن تكون نقصاً ، على حسب الحال التي تُذكر فيها:

فهذه لا يوصف الله تعالى بها على سبيل الإطلاق ، ولا تنفى عن الله تعالى على سبيل الإطلاق، بل يجب التفصيل، ففي الحال التي تكون كمالاً يوصف الله تعالى بها، وفي الحال التي تكون نقصاً لا يوصف الله تعالى بها. ومثال هذا: المكر، والخديعة، والاستهزاء؛ فالمكر والخديعة والاستهزاء بالعدو صفة كمال، لأن ذلك يدل على كمال العلم والقدرة والسلطان . . ونحو ذلك، أما المكر بالمؤمنين الصادقين فهو صفة نقص، ولذلك لم يرد وصف الله تعالى بهذه الصفات على سبيل الإطلاق، وإنما ورد مقيداً بما يجعله كمالاً، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}[129]، فهذا خداع بالمنافقين، وقال: {إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[130]، وهذا مكر بأعداء الله الذين كانوا يمكرون برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال عن المنافقين: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (16)}[131]، وهذا استهزاء بالمنافقين .

---

[129] [النساء: 142]
[130] [الأنفال: 30]
[131] [سورة البقرة]

فهذه الصفات تعتبر كمالاً في هذا السياق الذي وردت فيه، ولهذا يقال: الله تعالى يستهزئ بالمنافقين، ويخادعهم، ويمكر بأعدائه ونحو ذلك، ولا يجوز أن يوصف الله تعالى بالمكر والخداع وصفاً مطلقاً لأنه حينئذٍ لا يكون كمالاً .

ننتقل إلى قاعدة أخرى وحتى نعرفها نريد أولا أن نقرأ هذا الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[132]. فهل يتضمن الحديث اسما من أسماء الله الحسنى؟

يظن البعض أن الدهر اسم من أسماء الله ولكن هذا غير صحيح، فقد اتفقنا أن أسماء الله كلها حسنى، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسماً جامداً (أي: لا يدل على معنى)، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات. قال تعالى عن منكري البعث: {قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}[133]، يريدون مرور الليالي والأيام .

ولكن كيف نجمع بين هذا الكلام وبين الحديث القدسي: (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[134]؟

إن الحديث لا يدل على أن الدهر من أسماء الله الحسنى، فالذين يسبون الدهر يقصدون الزمان ولا يقصدون الله سبحانه وتعالى، فيكون معنى قوله (وأنا الدهر) تفسيره موجود في قوله (بِيَدِي الْأَمْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ). قَالَ الْخَطَّابِيُّ: مَعْنَاهُ: أَنَا صَاحِب الدَّهْر، وَمُدَبِّر الْأُمُور الَّتِي يَنْسُبُونَهَا إِلَى الدَّهْر، فَمَنْ سَبَّ الدَّهْر مِنْ أَجْل أَنَّهُ فَاعِل هَذِهِ الْأُمُور عَادَ سَبّه إِلَى رَبّه الَّذِي هُوَ فَاعِلهَا .

[132] رواه البخاري ومسلم
[133] [الجاثية: 24]
[134] رواه البخاري

عرفنا بعض القواعد والأساسيات في تعاملنا مع الأسماء والصفات، ولكن ما هو ضد توحيد الأسماء والصفات؟

يقول الله تعالى: {وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}[135]، إذا ضد توحيد الأسماء والصفات الإلحاد في أسماء الله وصفاته وآياته.

والإلحاد: هو الانحراف والميل عن القصد. والملحد: هو المائل عن الحق.

وحق هذه الأسماء أن يسمى بها الله وحده ولا يشتق منها، وأن لا تُعطل ولا تُمثل ولا تُشبه.

ويكون في أسمائه تعالى على النحو التالي:

1- إلحاد المشركين الذين عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه وسموا بها أوثانهم فزادوا ونقصوا فاشتقوا من أسماء الله تعالى أسماء الأصنام، كاشتقاق اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز، ومَنَاة من المّنَّان .

2- إلحاد المشبهة الذين يكيفون صفات الله تعالى، ويشبهونها بصفات خلقه فيعتقد أن هذه الأسماء دالة على أوصاف المخلوقين، أي يعتقد أن صفات الله سبحانه وتعالى مثل صفات المخلوقين، أي سمع الله كسمع البشر مثلا .

3- إلحاد النفاة المعطلة الذين ينفون الصفات أو يعطلونها، ويكون بإنكار شيء من الأسماء، أو مما دلت عليه من الصفات، مثل: من ينكر أن اسم الرحمن من أسماء الله تعالى كما فعل أهل الجاهلية، أو الجهمية الذين نفوا جميع الصفات والأسماء ووصفوا الله بالعدم المحض الذي لا اسم له ولا صفة. أو يثبت الأسماء، ولكن ينكر ما تضمنته من الصفات، كما يقول بعض المبتدعة : إن الله تعالى رحيم بلا رحمة، وسميع بلا سمع .

ومن الإلحاد أيضا أن يسمى الله سبحانه وتعالى بما لم يسم نفسه، كما فعل النصارى فسموا الله تعالى باسم الأب.

وكذلك من الإلحاد وصف الله بالنقص تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا كاليهود الذين قالوا: (يد الله مغلولة) .

[135] [الأعراف: 180]

مررنا سريعا على أنواع التوحيد الثلاثة وعرفنا ما يضادها فهل هناك علاقة بينها؟ وما هو موقف من أشرك في نوع واحد منها ؟

هذه الأنواع الثلاثة مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا ولا يمكن فصلها عن بعضها البعض، ولذلك فمن أشرك في واحد منها فقد مشركا في جميع الأنواع:

- فمن أقر بتوحيد الربوبية وعلم أن الله سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته لزمه من ذلك الإقرار أن يفرد الله بالعبادة وحده سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان رباً خالقاً مالكاً مدبراً، وما دام كله لله وحده وجب أن يكون هو المعبود وحده. ولهذا جرت سنة القرآن الكريم على أن تكون آيات الربوبية مقرونة بآيات الدعوة إلى توحيد الألوهية، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[136].

- وأما توحيد الألوهية فهو متضمن لتوحيد الربوبية؛ لأن من عبد الله ولم يشرك به شيئاً فهذا يدل ضمناً على أنه قد اعتقد بأن الله هو ربه ومالكه الذي لا رب غيره.

- وأما توحيد الأسماء والصفات فهو شامل للنوعين معاً، وذلك لأنه يقوم على إفراد الله تعالى بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا تنبغي إلا له سبحانه وتعالى، والتي من جملتها: الرب – الخالق – الرازق – الملك، وهذا هو توحيد الربوبية.

ومن جملتها: الله – الغفور – الرحيم – التواب، وهذا هو توحيد الألوهية .

وبهذا نكون قد مررنا سريعا على أنواع التوحيد الثلاثة عرفنا معانيها وما يضادها.

[136] [البقرة: 21]

خاتمة

كثيرا ما سمعنا عن صعوبة علم العقيدة ولذلك ابتعد عن تعلمه البعض منا غير مدركين لأهميته، ولكننا وجدنا في الحقيقة كيف أنه سهل وممتع ولا يستغني عنه أحد من المسلمين، علم يلامس القلوب ويعلقها بالله ويجعل للحياة لذة وطعما مختلفا، كنا نعرف أن الله هو الخالق الرازق المستحق للعبادة، ولكننا عشنا هذه المعاني حقيقة، عشناها بقلوبنا، لمسناها بمشاعرنا، أدركنا أننا نعايشها في كل لحظة من لحظات حياتنا، وأن الحياة مع هذه المعاني تقربنا من الله أكثر وأكثر.

ولكن هل يكفي العلم بها فقط؟

إن الأهم هو التطبيق، أن نكون قد استشعرنا معناها وأهميتها وأن تكون سببا في زيادة إيماننا.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.